

**السلطان الظاهر بيبرس وسياسته الخارجية  
في ضوء الدعوة الإسلامية دراسة تحليلية**

**إعداد الدكتور**

**رضا محمود محمد السعيد**

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد  
كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة  
جامعة الأزهر مصر



## السلطان الظاهر بيبرس وسياسته الخارجية في ضوء الدعوة الإسلامية (دراسة تحليلية)

رضا محمود محمد السعيد.

قسم: الدعوة والثقافة الإسلامية، كلية: أصول الدين والدعوة- بالمنصور - جامعة الأزهر - مصر.

البريد الإلكتروني: RedaMahmoud.2011@azhar.edu.eg  
الملخص:

يهدف البحث إلى بيان مكانة السلطان الظاهر بيبرس وأهميته التاريخية، وإبراز جهوده في صد الهجمات المغولية والصليبية على البلاد العربية والإسلامية، وقد أكد البحث ضرورة دراسة شخصيته في ضوء معطيات العصر الذي قد عاش فيه، وقد أشار البحث إلى الدور الكبير الذي قام به في تأسيس دولة "المماليك" بمصر، ثم تحدث عن معالم سياسته الخارجية في صد أخطار المغول والصليبيين، والتي كان لها الدور الأكبر في كسر المغول وإفشال محاولاتهم في إعادة السيطرة على العالم الإسلامي، وكذلك إنهاء التواجد الصليبي في بلاد الشام، وأظهرت الدراسة أن سياسته كانت تقوم على مبدأ صد العدوان وعدم الاعتداء على الآخرين، كما ظهر في ثنايا البحث أنه لم يكن أبدًا أن يرفض سياسة الجنوح للسلم والمهادنة إذا أتاحت الفرصة لذلك، وطالما كانت مصلحة الإسلام والمسلمين، غير أنه قد رفض بشكل قطعي التصالح مع "المغول"، كما قامت سياسته الخارجية على سياسة تبادل التجارة والسفراء مع الأمم الأخرى، وقد أوصت الدراسة المؤسسات المعنية بالآثار بضرورة إحياء التراث الحضاري والعمراني الذي بناه السلطان بيبرس، وذلك لأن هذا التراث جزء من تاريخ مصر والأمة العربية والإسلامية، كما أوصت المؤسسات المعنية بالسياسة والدبلوماسية بضرورة استثمار شخصية السلطان بيبرس في التواصل المعرفي والثقافي بين مصر وكازاخستان - موطن السلطان بيبرس - واعتبار شخصيته قوة ناعمة بين البلدين في جميع الجوانب السياسية والفكرية.

الكلمات المفتاحية: السلطان، الظاهر بيبرس، السياسة الخارجية، ضوء، الدعوة الإسلامية، دراسة تحليلية.

## **The Sultan Al-Zahir Baybars and His Foreign Policy in Light of the Islamic Call (An Analytical Study)**

Reda Mahmoud Mohamed El-Saeed.

**Department:** Islamic Call and Culture, Faculty: Theology- Al-Azhar University - Egypt.

**Email:** RedaMahmoud.2011@azhar.edu.eg

### **Abstract:**

The research aims to highlight the position and historical importance of Sultan Al-Zahir Baybars, emphasizing his efforts in repelling Mongol and Crusader attacks on Arab and Islamic lands. The study emphasizes the necessity of examining his character in the context of the era he lived in. It points out Baybars's significant role in establishing the Mamluk state in Egypt. Additionally, it discusses the main aspects of his foreign policy in confronting the threats posed by the Mongols and Crusaders, which played a crucial role in repelling Mongol advances and thwarting their attempts to regain control over the Islamic world. The study also delves into ending the Crusader presence in the Levant. It reveals that his policy was based on the principle of defending against aggression and not initiating hostilities, yet he never hesitated to pursue peace and reconciliation when opportunities arose, as long as it served the interests of Islam and Muslims. However, he categorically refused reconciliation with the Mongols. His foreign policy also revolved around trade and diplomatic relations with other nations , The study recommends that heritage institutions revive the cultural and urban heritage established by Sultan Baybars, as it is an integral part of Egypt's, the Arab world's, and the Islamic nation's history. Additionally, it suggests that policy and diplomatic institutions should capitalize on Sultan

Baybars's persona to enhance cognitive and cultural communication between Egypt and Kazakhstan – Baybars's homeland – considering his persona as a soft power between the two countries across political and intellectual dimensions.

**Keywords:** Sultan, Al-Zahir Baybars, Foreign Policy, Light, Islamic Call, Analytical Study.



## المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد؛؛؛  
فإن دراسة تاريخ الدعوة الإسلامية، وبيان واقع الدعاة والمدعويين قديماً وحديثاً، مع تحليل الأحداث العظام والأمور الجسام التي وقعت في هذا التاريخ، ومناقشتها مناقشة جادة نستهدف منها: دفع الشبهات، وبيان الحقائق، واستلهام العظة والعبرة، التي تؤدي بدورها إلى الثبات على الإيمان، والتمسك بالمبادئ الراشدة، والامتثال للقيم الإنسانية المتعددة، وتجنبنا الوقوع في أخطاء الأوائل أو تكرار زلاتهم وهناتهم، كما نتعرف من خلالها قواعد السنن الكونية الثابتة، ونستفيد من الحضارات والأمم السابقة، ونحاول توظيف معالمها وآثارها في الواقع بما ينفع الناس.

وقد أشار القرآن الكريم إلى كل هذه المعاني في قوله تعالى: ( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ). [يوسف: ١١١]. وقوله تعالى: ( وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ). [هود: ١٢٠].

ومن خلال دراسة تاريخ الدعوة - أيضاً - نستطيع أن نبرز الصورة الصحيحة والمشرقة للدعوة الإسلامية وواقعها التاريخي للناس جميعاً، بما في ذلك: الفتوحات الإسلامية، ومعاملة غير المسلمين في الحرب والسلام، والإحسان إلى أصحاب الحاجات منهم، وقيم التعايش والتسامح التي رسخها الإسلام مع الآخر، مهما كان جنسه أو لونه أو عقيدته، وغير ذلك مما يطول حصره.

كما أن قيمة الاقتداء، وتجلية "القدوة الحسنة" لا يمكن أن تكون إلا من خلال دراسة تاريخ الدعوة الإسلامية دراسة علمية جادة، الذي يمكننا فيها بيان سيرة

القادة والدعاة المسلمين، ومواقفهم المشهورة تجاه الإسلام والمسلمين، وانطباعاتهم عن الحياة.

وهذا المقصد كان من أهم مقاصد المؤرخين الكبار الذين عُنوا بالتاريخ، وتسجيل أحداثه، وتحليلها، واستخراج الدروس والعبر منها، فقد كان "علم الأخبار أو التاريخ نفسه في القرون الوسطى يخدم غاية خُلقية، وهي الكشف عن "القدوة الحسنة"، وتجنب المزالق والاعتبار بأخطاء الماضي، والوقوف على حمَد المتقين للفضائل فيرغب فيها، وسماع ذمهم للردائل فيكرهها<sup>(١)</sup>.

ومما جاء في كتاب (شذور العقود في تاريخ العهود) حول هذا الأمر: «فإن التواريخ وذكر السير راحة للقلب، وجلاء للهم، وتنبية للعقل، فإنه إن ذُكرت عجائب المخلوقات دلَّت على عظمة الصانع، وإن سُرحت سيرة حازم علّمت حسن التدبير، وإن قُصت قصة مفرط خوّفت من إهمال الحزم، وإن وُصفت أحوال ظريفة أو جبت التعجب من الأقدار، والتنزه فيما يشبه الأسمار»<sup>(٢)</sup>.

### أهمية البحث وأسباب اختياره:

(١) أن علم التاريخ وفنونه جزء أصيل من تخصص قسم الدعوة والثقافة الإسلامية؛ حيث إننا نبحث فيه تاريخ الدعوة، ورجالاتها، ومدارسها، وقضاياها قديماً وحديثاً؛ لأهداف وغايات متعددة يعرفها الباحثون والمتخصصون.

(٢) رغبتني الشديدة في دراسة التاريخ الدعوي بشكل عام، وتاريخ المماليك في مصر بشكل خاص، وسيرة السلطان بيبرس بشكل أخص، وبيان ما قدمه من جهود في خدمة الإسلام والمسلمين.

(٣) أهمية شخصية السلطان بيبرس التاريخية عند المسلمين وغيرهم، وما أثير

(١) يراجع: فن السيرة، إحسان عباس، (ص ١١ باختصار)، دار الثقافة - بيروت - لبنان، ط الثانية، (١٩٠٠م).

(٢) شذور العقود في تاريخ العهود، ابن الجوزي، (ص ٣٣، ٣٤)، دراسة وتحقيق د/ أحمد عبد الكريم نجيب، مركز نجيبويه للمخطوطات، ط الأولى (١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م).

حواله من اهتمام وجدل؛ مما دفعني إلى دراسة شخصيته وضرورة بيان المنهج الصحيح في التعاطي معها.

(٤) دفع ما أثاره المستشرقون حول سياسة السلطان بيبرس من شبهات وافتراءات؛ وذلك من خلال جمع الروايات التاريخية وتحليلها ومناقشتها وبيان موقف الدعوة الإسلامية منها.

(٥) محاولة الإسهام في دراسة "التراث الإسلامي" وتنقيته، مما سيؤدي بالضرورة إلى التجديد في الفكر والعلوم الإسلامية المعاصرة.

(٦) تأتي هذه الدراسة لتؤكد على أهمية السياسة والدبلوماسية، ودورها في تعزيز قيم السلم والتسامح، وتحقيق التعايش بين الشعوب والأمم.

(٧) بيان أن القادة المسلمين قد مارسوا السياسة والدبلوماسية في علاقاتهم بالشعوب والدول الأخرى، وهذا يؤكد على قيمة الواقع السياسي والحضاري للأمة الإسلامية قديماً وحديثاً.

إشكالية البحث والدراسة: تأتي هذه الدراسة لتطرح عدة إشكاليات علمية ومجتمعية وتجب عليها، وذلك مثل:

(١) من هو السلطان الظاهر بيبرس؟

(٢) ما جهود السلطان بيبرس في صد أخطار "المغول" و"الصليبيين"؟

(٣) ما مبادئ سياسة السلطان بيبرس الخارجية؟

(٤) ما موقف الدراسات الاستشراقية من شخصية السلطان بيبرس؟

(٥) ما موقف الدعوة الإسلامية من السلطان بيبرس وسياسته الخارجية؟

**مناهج البحث والدراسة:** لقد اعتمدت في هذه الدراسة على بعض المناهج العلمية، وهي: "المنهج التاريخي"، ويقوم على «تتبع ظاهرة تاريخية، من خلال أحداث أثبتتها المؤرخون، أو ذكرها أفراد، أو تناقلتها روايات، على أن يخضع الباحث ما حصل عليه من بيانات وأدلة تاريخية للتحليل النقدي، للتعرف على

أصالتها وصدقها»<sup>(١)</sup>.

وقيل: دراسة الحوادث والوقائع الماضية وتحليل المشكلات الإنسانية، والوقائع الاجتماعية، وفهمها، لمحاولة فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل<sup>(٢)</sup>.

كما اعتمدت على "المنهج التحليلي النقدي" والذي يقصد به: «دراسة الموضوع وتحليله، ومقارنته بما يشابهه، ثم الحكم له أو عليه، بتوضيح قيمته»<sup>(٣)</sup>.

الدراسات السابقة: هناك دراسات متعددة تناولت حياة الظاهر بيبرس وعصره، سواء أكانت دراسات تاريخية أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو سياسية، لكن لم أف - حسب علمي - على دراسة تناقش مبادئ السياسة الخارجية للظاهر بيبرس وفق ميزان الدعوة الإسلامية، الذي يقوم بمناقشة النصوص، وتحليلها، والتثبت من الوقائع والأحداث، والمقارنة بينها، ثم عرضها على النصوص الشرعية، للتعرف على مدى موافقتها للدعوة الإسلامية أو مخالفتها لها.

ومن أشهر الدراسات التي تناولت الظاهر بيبرس وحياته وعصره، دراسة بعنوان: "الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره"، د/ محمد جمال الدين سرور، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى (١٩٣٨م).

ودراسة بعنوان: "الظاهر بيبرس"، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، سلسلة أعلام العرب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

### طريقة العمل في البحث:

(١) عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها من سور القرآن الكريم، مع مراعاة الدقة في كتابة النص القرآني.

(٢) تخريج الأحاديث النبوية الشريفة من مصادرها المعتمدة عند المحدثين، مع

(١) البحث العلمي أسسه وطريقة كتابته، د/محمد الصاوي محمد مبارك، (ص ٣١)، المكتبة الأكاديمية - القاهرة - ط الأولى (١٩٩٢م).

(٢) مناهج البحث الفلسفي، د/ محمد أحمد مصطفى السرياقوسي، (ص ٧٩ بتصرف)، دار الثقافة - القاهرة - (١٩٩٠م).

(٣) البحث العلمي أسسه وطريقة كتابته، (ص ٣٠).

إيراد حكم العلماء عليها، خلا الصحيحين.

٣) عزو الأقوال والآراء إلى أصحابها مع مراعاة الأمانة العلمية في ذلك، مع ذكر أقوالهم بالنص أو بتصرف.

٤) الترجمة للأعلام الواردة أسماؤهم في البحث قدر الاستطاعة. وقد قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

المبحث الأول: السلطان بيبرس (حياته وعصره).

المبحث الثاني: سياسة صد أخطار "المغول" و"الصليبيين".

المبحث الثالث: سياسة عقد المعاهدات والتحالفات.

المبحث الرابع: سياسة تبادل التجارة والسفراء مع الأمم الأخرى.

الخاتمة: وتشمل أهم النتائج والتوصيات.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل صالحاً، وأن يتقبله لوجهه خالصاً، وأن ينفعني به والمسلمين في الدنيا والآخرة، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.



### تمهيد

يُعد السلطان بيبرس من أبرز القادة التاريخيين الذين عرفهم الواقع التاريخي بشكل عام والإسلامي بشكل خاص؛ لأنه قد تمتع بسيرة ذاتية متفردة، كما كانت له مواقف مشهورة وأحداث معروفة في الدفاع عن الإسلام والبلاد الإسلامية، واستطاع بعزيمته، وقوة إرادته، وحسن سياسته، أن يقوم بصد الحملات الصليبية والمغولية عن مصر وبلاد الشام، وقت أن كانت هذه الحملات تأتي تترًا وترحف بشكل عنيف نحو القضاء على البلاد الإسلامية وإبادة المعالم الإسلامية، وبالإضافة إلى ذلك كانت له عناية شديدة بالحضارة، والعمارة، والتشييد، والبناء، والتجديد للمعالم والآثار الإسلامية، وكان في طليعتها "الجامع الأزهر المعمور".

لذا يجب علينا جميعًا كباحثين ومتخصصين في الدراسات والعلوم الإسلامية والإنسانية والدعوية أن نَعْنَى عناية بالغة بشخصية السلطان بيبرس وممارساته السياسية، والعسكرية، والدينية، والحضارية، مع تحليلها ومناقشتها في ضوء الدعوة الإسلامية.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن دراسة شخصية السلطان بيبرس وعصره ستبرز مكانة مصر التاريخية في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وصد أخطار الهجمات والحروب المعادية التي شنّها "المغول"<sup>(١)</sup> و"الصليبيون"<sup>(٢)</sup> آنذاك.

(١) لم يكن المغول إلا مجموعة من القبائل الرُّحَل نشأت في الهضبة المعروفة باسم هضبة "منغوليا" شمالي صحراء جوبي، وهي أرض واسعة تتعدم المياه في بعض جهاتها، وعاشت هذه القبائل على روافد نهر عامور، واحتلت الأراضي الواقعة بين بحيرة بيكال في الغرب وجبال كنجان على حدود منشوريا في الشرق، وكانت هذه القبائل في حالة حرب دائمة مع جيرانهم "التتار" النازلين إلى الشرق منهم. يراجع: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، د/ محمد سهيل طقوش، (صد ٦٢ وما بعدها)، دار النفائس، ط الأولى (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

(٢) مصطلح الصليبيين أو الفرنج نقصد به ذلك الأوروبيين الذين استوطنوا في الإمارات الصليبية في الشام، كما نقصد به من جاء منهم مع الحملات الفرنجية التي كانت تغد إلى الشرق من وقت لآخر، وفضلًا عن هذا وذاك، فإن هذا المصطلح يشمل القوى أو الدول الأوروبية الغربية التي كانت لها اهتماماتها بالقضية الصليبية وبمنطقة الشرق الأدنى الإسلامي. يراجع: الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، دراسات=

وسنتناول في هذا التمهيد مسألتين:

### المسألة الأولى: منهجية التعاطي مع سيرة السلطان بيبرس.

وفي هذه المسألة سنحاول بيان المنهجية الصحيحة لدراسة السيرة السياسية، والعسكرية، والاجتماعية، للسلطان بيبرس؛ وذلك لتعدد الاتجاهات حولها بشكل كبير، وبيان ذلك كما يلي:

**الاتجاه الأول:** وينظر إلى السلطان بيبرس على أنه كان رجلاً عادياً، يصيب ويخطئ، استطاع أن يصل إلى السلطنة بعصاميته وجهوده البارزة في صد أخطار "المغول" و "الصليبيين" عن البلاد الإسلامية، وقد حاول في سلطنته أن يتلمس العدل والرحمة قدر استطاعته في رعيته من المسلمين وغيرهم. وقد مثل هذا الاتجاه أغلب المؤرخين الذين كتبوا سيرته ووثقوا أحداث عصره<sup>(١)</sup>.

**الاتجاه الثاني:** ويرى أن السلطان بيبرس كان ولياً من الأولياء الصالحين، ومستجاب الدعوة بشكل قطعي، وقامت على خدمته قبل السلطنة وبعدها قوى غيبية متمثلة في الأولياء أينما ولى إلى حرب، بالإضافة إلى عوامل نبوءته التي صاحبته مجيئه للحكم فكانت نبوءته بالرؤية، فقد تلقى نبوءته بنفسه، وكذلك دعوته في البرية بأن يصير ملكاً وسلطاناً على مصر والشام، فوافقت زمناً مقدساً، ومن ثم تضافرت كل القوى الكونية الغيبية في مساعدة بيبرس، فمثلت أنساقاً وظيفية مختلفة. وقد مثل هذا الاتجاه بعض المتصوفة في عصره<sup>(٢)</sup>.

**الاتجاه الثالث:** ويرى أنه كان بطلاً مزيفاً، وظالماً، وقاتلاً، وله مواقف تؤكد

=تحليلية وثائقية في التاريخ الدبلوماسي، عمر كمال توفيق، (صد ١٣)، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر - الإسكندرية - الطبعة الأولى (١٩٨٦م).

(١) والذين سنتعرف عليهم في ثنايا البحث والدراسة.

(٢) البنية الأسطورية في سيرة الظاهر بيبرس، د/ إبراهيم عبد الحليم حنفي، (صد ٢١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الأولى (٢٠١٢م).

وحشيته، وانعدام إنسانيته، وظلمه، وتعطشه لسفك الدماء<sup>(١)</sup>. وقد مثلَّ هذا الاتجاه بعض "المستشرقين"<sup>(٢)</sup> الذين عنوا بشخصيته وعصره وسلطنته، وهذه هي عادة كثير من "المستشرقين" في التعامل مع الشخصيات التاريخية للإسلام والمسلمين، وليس خافياً أن هذا الاتجاه يخدم أفكاراً متطرفة، ولا يعتمد على المنهج العلمي والموضوعي في دراسة الأحداث والوقائع.

لذا وجب علينا بيان المنهج الصحيح في التعاطي مع شخصية السلطان بيبرس، وضرورة الرد على ما أثاره بعض "المستشرقين" حول بعض الروايات والأحداث، والتأكيد على أن هذا المنهج يجب أن يقوم بدراسته في الإطار البشري الخالص، وليس في الإطار المقدس، أو المنهج التبريري للأخطاء والزلات، فالرجل بشر يخطئ ويصيب، ووظيفتنا أن نحمده على صوابه، ونرد عليه خطأه، ونحاول أن نعتذر له قدر الاستطاعة، وندعو الله تعالى أن يغفر له الزلات والهفات.

وقد أشار إلى ذلك الإمام الذهبي<sup>(٣)</sup> - رحمه الله - عند ترجمته للسلطان بيبرس، فقال: "وكان غازياً، مجاهداً، مرابطاً، خليفاً للملك، لولا ما كان فيه من الظلم، والله يرحمه ويغفر له ويسامحه، فإنَّ له أياماً بيضاء في الإسلام ومواقف مشهودة وفتوحات معدودة... ولولا نقص عدله لكان أحوذياً نسيج وحده، قد أعد

(١) يراجع: الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، د/ محمد جمال الدين سرور، (ص ٨٢)، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى (١٩٣٨م). فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، تقديم: جون مان، ترجمة: يعقوب عبد الرحمن، (ص ١٣٥)، (١٣٩)، المركز القومي للترجمة، ط الأولى، (٢٠١١م).  
(٢) المستشرق: هو كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله: أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه، وحضاراته، وأديانه.

والاستشراق: يعني الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه، وعقائده، وتشريعاته، وحضارته بوجه عام. يراجع: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، أ.د/ محمود حمدي زقزوق، (ص ١٨)، دار المعارف، بدون.

(٣) الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨هـ = ١٢٧٤ - ١٣٤٨م). حافظ، مؤرخ، علامة محقق. تركماني الأصل، من أهل ميافارقين، مولده ووفاته في دمشق، له مؤلفات عدة، منها: سير أعلام النبلاء، تاريخ الإسلام الكبير. الأعلام، خير الدين الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، (٥/ ٣٢٦)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - (٢٠٠٢م).

للأمور أقرانها، أقامه الله وقت ظهور "هولاكو"<sup>(١)</sup> و"أبغا"<sup>(٢)</sup> فهاباه، وانجمعا عن البلاد"<sup>(٣)</sup>.

وهذه المنهجية في الأساس مبنية على ضرورة مراعاة الظروف الدينية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والإنسانية، التي كانت تحيط بالسلطان بيبرس وسلطنته في مصر وبلاد الشام، وفي ذلك يقول د/ عبد الفتاح عاشور: "ولكننا مع اعترافنا بأن بيبرس كان قاسياً في بعض تصرفاته، إلا أنه ينبغي أن نذكر حقيقة هامة هي أنه كان يتصرف بروح العصر الذي عاش فيه فعلاً والجو الذي تشبع به تشبعاً كاملاً، فإذا أردنا أن نحكم حكماً على بيبرس، كان علينا ألا نحكم عليه بمعاييرنا نحن، بل بمعايير عصره هو، وهو العصر المضطرب بالفتن والمؤامرات والدسائس والعدوان، وإذا كانت للبطولة في نظرنا الآن معانيها السامية ومثلها العليا التي تتفق ومبادئ الشرف والأخلاق، فإن البطولة في الجو الذي عاش فيه بيبرس لم تحظ بمثل هذه المعاني، وإذا لم تكن هناك غضاضة في أن يخرج البطل أحياناً عن قواعد المبادئ السابقة، وهو مع ذلك يستثير إعجاب المعاصرين بشجاعته وفروسيته وقوته، وربما أخذ المعاصرون بمبدأ: "إن الحسنات يذهبن السيئات" فتناسوا لبيبرس زلاته في سبيل ما اتصف به من شجاعة أرهبت أعداءه وأعداء العروبة، أو ربما لم يجد المعاصرون في تصرفات بيبرس شيئاً غريباً غير

(١) هولاكو خان: (١٢١٧-١٢٦٥م). هو حفيد "جنكيز خان"، ولد لأبيه "تولوي خان"، وأمه "سرخفتاني بكي" التي كانت من إحدى القبائل الترك، وكانت تعتنق المذهب النسطوري من الديانة النصرانية في منغوليا، وكان شديد الولع ببلاد فارس، فأسس عهد الخانات والمغول فيها، استطاع هولاكو غزو البلاد الإسلامية، حتى قتل الخليفة العباسي، وقد اشتهر بشدة البطش والقتل والإرهاب، وله دور كبير في تمزيق العالم الإسلامي ونهب ثرواته آنذاك. يراجع: هولاكو (المارد القادم من الشرق جزر التاريخ عدو الحضارة)، منصور عبد الحكيم، (صد ٤٠ وما بعدها)، دار الكتاب العربي - دمشق - بدون.

(٢) ابن هولاكو.

(٣) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، (١٥/٣٠٧، ٣٠٨ باختصار)، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى، (٢٠٠٣م).

مألوف، ومهما يكن من أمر، فحسب بيبرس أن مؤرخي عصر "المماليك"<sup>(١)</sup> أنفسهم - أمثال المقرئزي<sup>(٢)</sup> - لم يروا فيه إلا بطلاً أقام منار الإسلام والناس نيام، ووصفوه بأنه كان من خير ملوك الإسلام، وأنه قضى حكمه في الذب عنهم من العدو المخذول، وأنه كان ملكاً شجاعاً مقداماً غازياً مجاهداً مرابطاً خليقاً بالملك<sup>(٣)</sup>. وهذا هو موقف الدعوة الإسلامية من الأشخاص والمواقف، حيث تنظر إليهم دون إفراط أو تفريط.

### المسألة الثانية: أهم الكتابات التاريخية التي تناولت سيرة السلطان بيبرس.

لقد اهتم المؤرخون بسيرة السلطان بيبرس اهتماماً شديداً، وأفردوا له ترجمات متنوعة ومتعددة في كتاباتهم العلمية والتاريخية، وجاء في مقدمتهم: محي الدين بن عبد الظاهر<sup>(٤)</sup> في كتابه: "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"<sup>(٥)</sup>، والمقرئزي في كتابه: "السلوك لمعرفة دول الملوك"، وابن تغري بردي<sup>(٦)</sup> في كتابه: "النجوم

(١) قامت دولة المماليك في مصر في العصور الوسطى في الفترة من (٦٤٨هـ إلى ٩٢٣هـ) (١٢٥٠م - ١٥١٧م)، أي زهاء ثلاثة قرون. يراجع: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، د/ عبد المنعم ماجد، (صد ٧)، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، (١٩٧٩م).

(٢) المقرئزي (٧٦٦ - ٨٤٥هـ = ١٣٦٥ - ١٤٤١م). مؤرخ الديار المصرية، أصله من بعلبك، ونسبته إلى حارة المقارزة (من حارات بعلبك في أيامه)، ولد ونشأ ومات في القاهرة، وولي فيها الحسبة والخطابة والإمامة مرات، واتصل بالملك الظاهر برقوق، من تأليفه: كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، ويعرف بخط المقرئزي، "السلوك في معرفة دول الملوك". يراجع: الأعلام، (١/١٧٧، ١٧٨).

(٣) الظاهر بيبرس، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، (صد ٨، ٩)، سلسلة أعلام العرب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

(٤) ابن عبد الظاهر (٦٢٠ - ٦٩٢هـ = ١٢٢٣ - ١٢٩٣م). قاض أديب مؤرخ، من أهل مصر مولداً ووفاء، كان كاتب الإنشاء في الديار المصرية، له كتب، منها "الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة" نقل عنه المقرئزي كثيراً في خطه، "سيرة الظاهر بيبرس". الأعلام، (٤/٩٨).

(٥) لن يكون اعتمادنا بالأساس في هذا البحث على السيرة التي كتبها محي الدين بن عبد الظاهر، وذلك لما قيل: أن محي الدين بن عبد الظاهر كان يكتب في هذه السيرة ما يسر السلطان بيبرس فقط، وكان يقرأها عليه؛ لذا فقد ملئت بكثير من العجائب والأساطير التي استدرکها الباحثون والمستشرقون بعد ذلك على السلطان بيبرس. يراجع: البنية الأسطورية في سيرة الظاهر بيبرس، (صد ٤٤).

(٦) ابن تغري بردي (٨١٣ - ٨٧٤هـ = ١٤١٠ - ١٤٧٠م). أبو المحاسن، مؤرخ بحاتة، من أهل القاهرة، مولداً ووفاءً. نشأ يوسف في حجر قاضي القضاة جلال الدين البلقيني (المتوفى سنة ٨٢٤هـ)، وتأدب، وتفقه، وقرأ الحديث، وأولع بالتاريخ، وصنف كتباً نفيسة، منها، "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، "المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي". الأعلام، (٨/٢٢٢/٢٢٣).

الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، وابن خلدون <sup>(١)</sup> في كتابه: "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، وابن الوردي <sup>(٢)</sup> في كتابه: "تاريخ ابن الوردي"، وشهاب الدين النويري <sup>(٣)</sup> في كتابه: "تهاية الأرب في فنون الأدب".

ومن المعاصرين: الأستاذ الدكتور/ سعيد عبد الفتاح عاشور <sup>(٤)</sup> في كتابه: "الظاهر بيبرس"، والأستاذ الدكتور/ محمد جمال الدين سرور في كتابه: "الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره"، وجيمس واترستون <sup>(٥)</sup> في كتابه: "فرسان الإسلام وحروب المماليك"، و د/ محمد سهيل طقوش في كتابه: "تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام"، بالإضافة إلى الدراسات العلمية والأكاديمية في الجامعات والأقسام المتخصصة، وهذا الثراء في الكتب والدراسات حول شخصية السلطان بيبرس يؤكد مكانته التاريخية قديماً وحديثاً عند المسلمين وغيرهم.

وتجدر الإشارة إلى أن السمة الرئيسة التي اتسمت بها هذه المؤلفات، هي التركيز على تناول مظاهر العداء والحرب بين المسلمين والصليبيين، وهذا التركيز

(١) ابن خَلْدُون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ = ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م). الفيلسوف المؤرخ، والعالم الاجتماعي البحاثة، أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالاً، واعترضته دسائس وشايات، وعاد إلى تونس، ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برفوق، وولي فيها قضاء المالكية، ولم يتزى بزى القضاء محتقظاً بزى بلاده، وعزل، وأعيد، وتوفي فجأة في القاهرة، اشتهر بكتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر". (الأعلام، ٣/ ٣٣٠).

(٢) ابن الوَرْدِي (٦٩١ - ٧٤٩ هـ = ١٢٩٢ - ١٣٤٩ م). شاعر، أديب، مؤرخ، ولد في معرفة النعمان (بسورية) وولي القضاء بمنبج، وتوفي بحلب، من كتبه (ديوان شعر) فيه بعض نظمه ونثره، و (تتمة المختصر) يعرف بتاريخ ابن الوردي، جعله ذليلاً لتاريخ أبي الفداء وخالصة له. (الأعلام، ٥/ ٦٧).

(٣) التُوَيْرِي (٦٧٧ - ٧٣٣ هـ = ١٢٧٨ - ١٣٣٣ م)، عالم بحاث غزير الاطلاع، نسبته إلى نويرة (من قرى بني سويف بمصر) ومولده ومنشأه بقوص، اتصل بالسلطان الملك الناصر ووكله السلطان في بعض أموره، وتقلب في الخدم الديوانية، من مصنفاته: "تهاية الأرب في فنون الأدب"، وهو أشبه بدائرة معارف لما وصل إليه العلم عند العرب في عصره. توفي في القاهرة. (الأعلام، ١/ ١٦٤، ١٦٥).

(٤) أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة القاهرة.  
(٥) تخرج في جامعة لندن - كلية الدراسات الشرقية والإفريقية، نال شهادة الماجستير من جامعة دندى - اسكتلندا - المملكة المتحدة، سافر وعمل بالشرق الأوسط، والولايات المتحدة الأمريكية، والصين، لسنوات عديدة، كما قام بزيارة بلاد الشام وإيران لفترات طويلة، وهو مؤرخ يحاول أن يتسم في كتاباته بالحياد واستخدام الأسلوب العلمي في البحث، له كتاب "السيوف المقدسة" صدر في عام (٢٠١٠ م). يراجع: فرسان الإسلام وحروب المماليك، (ص ٤١٩).

أدى بشكل غير مباشر على تعظيم الدور الدبلوماسي والسياسي الذي قام به القادة المسلمين مع غيرهم، وطمس الكثير من معالمه؛ حتى بدا للكثيرين وكأنه من العسير أن تقوم علاقات دبلوماسية وسياسية فعالة بين الجانبين لتسوية ما ينشب بينهما من خلافات وصراعات، وكذلك لوضع الأسس والتنظيمات للتعامل السلمي بينهما، وفي الواقع أن الكثير من معالم العلاقات السلمية بين الجانبين لا تزال في حاجة لمزيد من الإيضاح<sup>(١)</sup>.

ومن ثم تأتي هذه الدراسة التي بين أيدينا لتجلي الدور السياسي والدبلوماسي الذي كان بين المسلمين وغيرهم في عصر السلطان بيبرس، والذي سنتعرف عليه في المباحث الآتية.

(١) الدبلوماسية الإسلامية، (ص ١٢).



## المبحث الأول

### السلطان بيبرس (حياته وعصره)

سنتناول في هذا المبحث نبذة مختصرة عن شخصية السلطان بيبرس وبعض الأحداث التي وقعت في عصره؛ حتى نستوعب بشكل واضح طبيعة الشخصية والبيئة التي وجدت فيها، ومدى تأثير ذلك على السياسات الخارجية التي اعتمدها السلطان بيبرس أثناء سلطنته، وذلك على النحو الآتي:

**أولاً: اسمه ولقبه:** هو بيبرس بن عبد الله<sup>(١)</sup>، السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس الصالحي النجمي البندقداري<sup>(٢)</sup> التركي، سلطان الديار المصرية، والبلاد الشامية، والأقطار الحجازية، والشغور الإسلامية<sup>(٣)</sup>.

**ثانياً: مولده ونشأته:** ولد في حدود "العشرين وستمائة" من الهجرة، قبلها بقليل أو بعدها<sup>(٤)</sup> تخميناً بصحراء "القفجاق"<sup>(٥)</sup>، وأخذ من بلاده صغيراً وأُبيع بدمشق؛ فنشأ بها، ثم اشتراه الأمير علاء الدين أيديكين البندقداري الصالحي<sup>(٦)</sup>،

(١) لا يعرف بالتحديد اسم والد الظاهر بيبرس، وهذه هي طبيعة أسماء المماليك، فلا تعرف أسماء آبائهم، ومن ثم ينسبون غالباً إلى هذه النسبة: "عبد الله".

(٢) انتسب الظاهر بيبرس بهذه النسبة لكونه كان مملوكاً للأمير علاء الدين أيديكين البندقداري، وقد انتسب المماليك غالباً لأسادتهم وسادتهم الذين اشتروهم من التجار أو حصلوا عليهم بطريقة أو بأخرى، فالمملوك الأشرفي ينسب إلى أستاذه الأشرف، والمملوك الظاهري ينسب إلى أستاذه الظاهر .. وهكذا. يراجع: الظاهر بيبرس، د/ عبد الفتاح عاشور، (ص ١٤).

(٣) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: ٨٧٤هـ)، (٣/ ٤٤٧)، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد أمين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٤) تاريخ الإسلام، (٣٠٦/١٥).

(٥) القفجاق أو القبجاق: فرع من الترك، مساكنهم الأصلية حوض نهر ارتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر أرثل في جنوبي روسيا الحالية، فعرفت تلك الجهة باسم القبجاق، كما عرفت به أيضاً دولة المغول المسماة القبيلة الذهبية. جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، عبد الله سعيد محمد الغامدي، هامش (ص ١٣٠)، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م). ويراجع: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، (ص ١١١).

(٦) يقول ابن تغري بردي: "البندقداري، أستاذ الملك الظاهر بيبرس، كان من أعيان الأمراء الصالحية، وكان الملك الظاهر بيبرس البندقداري مملوكه، اشتراه لما أن كان بحماة، ثم إن السلطان الصالح نجم الدين أيوب صادر علاء الدين أيديكين هذا، وأخذ منه بيبرس في جملة ما أخذه منه، وتنقلت الأحوال بهما حتى صار

وبقي في ملكه إلى أن قبض الملك الصالح<sup>(١)</sup> على أيديكين، وأخذ بيبرس فيما أخذه منه، وذلك في شهر شوال سنة "أربع وأربعين وستمائة"<sup>(٢)</sup>.

**ثالثاً: عتقه:** أعتقه الملك الصالح نجم الدين، وقدمه على طائفة من "الجمدارية"<sup>(٣)</sup>؛ لما رأى من فطنته وذكائه واستمر بيبرس على ذلك إلى أن مات الملك الصالح نجم الدين أيوب<sup>(٤)</sup>.

**رابعاً: توليه السلطنة:** بعد أن انتصر المظفر قطز<sup>(٥)</sup> على "المغول" في موقعة "عين جالوت"<sup>(٦)</sup> توجه نحو الديار المصرية، وقد عاد بيبرس صحبتته بعد أن اتفق

= بيبرس سلطاناً، والأمير علاء الدين أيديكين المذكور من جملة أمرائه، وبقي معظماً عند الملك الظاهر بيبرس؛ لحقوق سلفته، ويرعى له ما تقدم، وينعم عليه، واستمر أيديكين هذا على حرمة وإمرته، إلى أن مات في شهر ربيع الآخرة سنة أربع وثمانين وستمائة، ودفن بتربيته بالشارع الأعظم، بالقاهرة، وكان له معرفة، ورأي، وتدبير، وسياسة". المنهل الصافي، (١٥٦/٣).

(١) الملك الصالح (٦٠٣ - ٦٤٧ هـ = ١٢٠٦ - ١٢٤٩ م). من كبار الملوك الأيوبيين بمصر، ولد ونشأ بالقاهرة، وولي بعد خلع أخيه (العادل) سنة (٦٣٧ هـ) وضبط الدولة بحزم، وكان شجاعاً مهيباً عفيفاً صموئياً، عمر بمصر ما لم يعمره أحد من ملوك بني أيوب، وفي أواخر أيامه أغار الإفرنج على دمياط سنة (٦٤٧ هـ) واحتلوا وأصاب البلاد ضيق شديد، وكان الصالح غائباً في دمشق، فقدم ونزل أمام الفرنج وهو مريض بالسّل فمات بناحية المنصورة، ونقل إلى القاهرة. من آثاره قلعة الروضة بالقاهرة. الأعلام، (٣٨/٢).

(٢) المنهل الصافي، (٤٤٨/٣).

(٣) هي الطائفة التي تعتني بملابس السلاطين والأمراء. مستفاد من: السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين المقرئزي (المتوفى: ٨٤٥ هـ)، (٣٠/٣)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - لبنان/بيروت - ط الأولى، (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م).

(٤) المنهل الصافي، (٤٤٨/٣).

(٥) المظفر قطز السلطان الشهيد (٦٥٨ - ٦٥٠ هـ = ١٢٦٠ - ٠٠٠ م). قطز بن عبد الله المعزي، سيف الدين: ثالث ملوك الترك المماليك بمصر والشام، كان مملوكاً للمعز "أيك" التركماني، وترقى إلى أن كان في دولة المنصور بن المعز "أتابك" العساكر، ثم خلع المنصور، وتسلطن مكانه سنة (٦٥٧ هـ) وخلع على الأمير ركن الدين "بيبرس" البندقداري وجعله "أتابك" العساكر وفوض إليه جميع أمور المملكة، ونهض لقتال "المغول" وكانوا بعد تخريب بغداد قد وصلوا إلى دمشق، وهددوا مصر، فجمع الأموال والرجال، وخرج من مصر، فلقى جيشاً منهم في "عين جالوت" بفلسطين، فكسره سنة (٦٥٨ هـ) وطارد فلوله إلى "بيسان" فظفر بهم، ودخل دمشق في موكب عظيم، وعزل من بقي من أولاد بني أيوب واستبدل بهم من اختار من رجاله، ورحل يريد مصر، وبينما هو في الطريق تقدم منه أتابك عسكره "بيبرس" ووراه عدد كبير من أمراء الجيش، فنتاولوه بسيوفهم فقتلوه، ودفن بالقصير، ثم نقل إلى القاهرة. الأعلام، (٥/٢٠٠)، (٢٠١).

قال عنه الذهبي رحمه الله: "كان أكبر مماليك الملك المعز أيك التركماني، وكان بطلاً شجاعاً، مقدماً، حازماً، حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوض الله شبابه بالجنة ورضي عنه". تاريخ الإسلام، (٨٨٧/١٤).

(٦) يقول أحد المستشرقين: "من سوء حظ المغول أن توغلهم في فلسطين أثار دولة إسلامية كبيرة لم تتعرض للهزيمة، وهي دولة المماليك في مصر؛ إذ أضحي المماليك وقتنذ من الصلاحية والسلامة ما يجعلهم يقبلون

مع جماعة ممن وافقه على قتل الملك المظفر قطز؛ فقتلوه في سادس عشر ذي القعدة سنة "ثمان وخمسين وستمائة"، وكان المتولي قتله الظاهر بيبرس<sup>(١)</sup>، وهو أن الملك المظفر قطز ساق خلف أرنب؛ فلما انفرد عن عسكره، تقدم بعض الأمراء - ممن اتفق مع بيبرس وشفع عنده شفاعة - وتقدم ليقبل يده؛ فقبض عليها، وأخذته السيوف حتى تلف<sup>(٢)</sup>.

ثم بايعه الأمراء ممن كانوا معه<sup>(٣)</sup>، فدخل القاهرة؛  
وملك قلعة الجبل<sup>(٤)</sup>، وتلقب بـ "الملك القاهر" أولاً؛ فأشار أحد الوزراء على

تحدي المغول". تاريخ الحروب الصليبية، (٣ / ٥٣٢). نقلا عن جهاد المماليك ضد المغول الصليبيين، (ص ١٣٤).

ولا شك أن الانتصار الذي أحرزه المماليك على المغول في معركة "عين جالوت" قد أنقذ الإسلام والمسلمين من أشد ما تعرضوا له من أخطار، فلو أن المغول توغلوا في الأراضي المصرية لما تبقى في العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه دولة قوية تستطيع إيقاف الزحف المغولي ... وبهذا الانتصار أيضاً قد جنبت مصر ويلات الغزو المغولي المدمر، واحتفظت مصر بما لها من مكانة حضارية ومدنية، ولم تتعرض لما تعرضت له بغداد ودمشق وغيرهما من مدن إيران والعراق والشام من الخراب والدمار، الذي عطل ما كانت تزخر به المدن الإسلامية من الفنون والعلوم والآداب والمعالم الحضارية. يراجع: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، (ص ١٥٥ وما بعدها باختصار).

**ويؤكد جون مان:** أن جنود المماليك في معركة "عين جالوت" كانوا على قدر الكفاءة التي تمتع بها جنود المغول في رمي السهام، واستعمال الرماح والسيوف، وكانوا على مهارة تفوق الجنود المغول في فنون فرض الحصار في الحرب وقادرين على نشر المقاليع بأحجام وأعداد هائلة لا يمكن تصورها في تلك العصور الغابرة في الشرق الأوسط. فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (ص ١٧).

(١) يقول الذهبي رحمه الله عن سبب قتل ركن الدين بيبرس للمظفر قطز: "ثمّ جهز - أي قطز - الأمير ركن الدين بيبرس، أعني الملك الظاهر، في أقفاء التتار، ووعده بنبابة حلب، فساق وراءهم إلى أن طردهم عن الشام، ثمّ إنه انتهى على إعطائه حلب، وولاها لعلاء الدين ابن صاحب الموصل، فتأثر ركن الدين من ذلك". تاريخ الإسلام، (١٤ / ٨٨٧).

(٢) وقد ذهب البعض إلى أن السلطان بيبرس لم يقتل المظفر قطز، ومن قتله رجل يسمى جوان وأعوانه. يراجع: النبوة الأسطورية في سيرة الظاهر بيبرس، (ص ٦٣).

(٣) يقال إن الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب الصالحي الأتابك قال في ذلك المجلس: ينبغي ألا يلي السلطنة إلا من خاطر بنفسه في قتل السلطان وأقدم على هذا الأمر العظيم، فقال الملك الظاهر: أنا قتلتها، ووثب وجلس على طراحة السلطنة. نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي النيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)، (٣٠ / ٣)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، (١٤٢٣هـ). وقد كان من الأمور المألوفة في العصر المملوكي أن يحل القاتل محل القتيل في سدة الحكم ما دام قد أظهر الشجاعة والتفوق على زملائه الأمراء. تاريخ المماليك في مصر والشام، (ص ٨٧).

(٤) قال الأمير فارس الدين أقطاي الأتابك - أي قائد الجند - للسلطان بيبرس: إن السلطنة لا تتم لك إلا بدخولك إلى قلعة الجبل، فتوجه بيبرس إلى قلعة الجبل. نهاية الأرب، (٤ / ٣٠).

السلطان بتغيير لقبه، وقال: ما نُقِبَ أحد بالقاهر فأفلح، نُقِبَ به: "القاهر بن المعتضد"، فلم تطل أيامه وخلع وسمل، ولقب به "القاهر ابن صاحب الموصل"؛ فسمُّ؛ فأبطل السلطان اللقب الأول، ولُقب بـ "الملك الظاهر"، وكتب بذلك إلى جميع الأعمال.

وكانت سلطنة الملك الظاهر بيبرس في سنة ثمان وخمسين وستمائة<sup>(١)</sup>، واستقر في الملك وعظمت ممالكه، وسافر إلى دمشق غير مرة، وفتح الفتوحات الهائلة، وكسر "المغول"<sup>(١)</sup>.

**خامساً: اهتمام السلطان بيبرس بالحضارة والعمارة:** فقد اهتم بالبنين والعمران، وأنشأ الجوامع والمدارس التعليمية، وبنى القناطر والجسور التي ما زالت معالمها باقية حتى الآن.

وحول ذلك يقول ابن تغري بردي - رحمه الله -: "له مآثر بالقاهرة ودمشق وغيرها، وبنى عدة جوامع، ومدارس، وقناطر، وجسور مشهورة به بسائر الأقاليم منها: المدرسة الظاهرية بين القصرين من القاهرة، وفي أيامه في سنة ثلاث وستين وستمائة" جعل بالديار المصرية قضاة أربع، من كل مذهب قاض، وسبب ذلك: توقف القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز<sup>(٢)</sup> عن تنفيذ كثير من الأحكام، وكثرة توقفه؛ فكثرت الشكاوى منه، وتعطلت الأمور"<sup>(٣)</sup>.

وقد ذكر العلامة الصفدي<sup>(٤)</sup> كثيراً من عمائره التي أقامها بمصر، والشام،

(١) المنهل الصافي، (٣/ ٤٥١ وما بعدها باختصار). ويراجع: نهاية الأرب في فن الأدب، (٣٠/ ٥ وما بعدها).

(٢) كان إماماً عالمًا فاضلاً، وولى المناصب الجليلة: كنظر الدواوين، والوزارة، وقضاء القضاة، ودرس بالشافعي، وكانت له مكانة عند الملك الظاهر، ومولده سنة أربع عشرة وستمائة، ومات ليلة السابع والعشرين من شهر رجب، ودفن بسفح المقطم. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: ٨٧٤هـ)، (٧/ ٢٢٢، ٢٢٣)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

(٣) المنهل الصافي، (٣/ ٤٦٥ وما بعدها باختصار). ويراجع نهاية الأرب، (٣٠/ ٧٥ وما بعدها). نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، (ص٤٩).

(٤) صلح الدين الصفدي (٦٩٦ - ٧٦٤هـ = ١٢٩٦ - ١٣٦٣م). أديب، مؤرخ، كثير التصانيف الممتعة، ولد في صفد (فلسطين) وإليها نسبته، وتعلم في دمشق فعانى صناعة الرسم فمهر بها، ثم ولع بالأدب وتراجم

والحجاز فقال: "عَمَّرَ بقلعة الجبل دار الذهب، وجدد الجامع الأقمَر، والجامع الأزهر، وبنى جامع العافية (بالحسينية) وأنفق عليه فوق الألف ألف درهم، وزاوية للشيخ خضر وحماماً، وطاحوناً، وفرناً، وقبةً على المقياس مزخرفة، وعدة جوامع في الأعمال المصرية، وجدد قلعة الجزيرة، وقلعة العمودين ببرقة، وقلعة السويس، وعمر جسراً بالقليوبية، وجدد الجسر الأعظم على بركة الفيل، وأنشأ قنطرته المَعْرُوفَةَ بقنطرة السباع، وقنطرة بمنية السيرج، وقنطرتين عند القصير بسبعة أبواب تعبرها المراكب، وست عشرة قنطرة يستلک منها إلى دمياط، وقنطرة على خليج القاهرة للمرور عليها إلى الميدان، وقنطرة عظيمة على خليج الإسكندرية.

وتم عمارة حرم رسول الله ﷺ، وعمل منبره، وأحاط بالضريح درابزيناً، وذهب سقفه وجددها وبيض جدرانه، وجدد البيمارستان بالمدينة، ونقل إليه سائر المعاجين والأكحال والأشربة، وبعث إليه طبيباً من الديار المصرية، وجدد قبر الخليل عليه السلام ورم شعته، وأصلح أبوابه وميضاته وبيضه، وزاد في راتبه المجري عليه وعلى قوامه ومؤذنيه وإمامه، ورتب له من مال البلد ما يجري على الواردين عليه والمقيمين به.

وجدد بالقدس الشريف ما كان تداعي من قبة الصخرة، وجدد قبة السلسلة وزخرفها، وأنشأ خاناً للسبيل نقل بابه من دهليز كان للخلفاء المصريين بالقاهرة، وبنى به مسجداً وطاحوناً وفرناً وبستاناً، وبنى على قبر موسى عليه السلام قبة ومسجداً وهو عند الكتيب الأحمر قبلي أريحا، ووقف عليه وقفاً، وبنى على قبر أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه مشهداً، ووقف عليه وقفاً<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن اهتمام الظاهر بيبرس بالبناء والتشييد والعمارة يؤكد أنه كان يمتلك

الأعيان، وتولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، فتوفي فيها، من تصانيفه: "الوافي بالوفيات"، الأعلام، (٢/ ٣١٥).

(١) الوافي، (١٠/ ٢١٢ وما بعدها باختصار). ويراجع: نهاية الأرب، (٣٠/ ١٠).

مشروعاً حضارياً لمصر والبلاد الإسلامية، ولم يكن مجرد سلطان يبتغي الملك والسلطنة لذاتها فقط.

**سادساً: توحيد الأمة العربية والإسلامية بجعله مصر مركزاً للخلافة العباسية:**  
لقد كان من أهم الأعمال التي قام بها السلطان بيبرس نقله مركز الخلافة العباسية إلى مصر، وذلك بعدما قتل "المغول" الخليفة العباسي، واستطاعوا تدمير بلاد العراق موطن الخلافة الإسلامية آنذاك، فاستدعى الظاهر بيبرس أحد الأمراء العباسيين، وهو: أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر سنة تسع وخمسين وستمائة<sup>(١)</sup>، وأحضر السلطان الفقهاء، والأئمة، والعلماء، والأمراء، والصوفية، والتجار، وغيرهم، وحضر الخليفة وأثبت نسبه، ولما ثبت النسب بايعه السلطان على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وأخذ الأموال بحقها وصرفها في مستحقها، ثم قلد الخليفة السلطان الملك الظاهر البلاد الإسلامية وما سيفتحه الله من البلاد، وكتب بذلك تقليد شريف عن الخليفة للسلطان، وبايع الناس الخليفة على اختلاف طبقاتهم، وكتب السلطان إلى سائر الأعمال بأخذ البيعة له وأن يخطب باسمه على المنابر وتنقش السكة باسمه<sup>(٢)</sup>.

**وقد سعى السلطان بيبرس إلى إحياء الخلافة العباسية بمصر لأسباب عدة، منها:**

(١) ليجعل منها سنداً للسلطنة المملوكية التي كانت بحاجة ماسة إلى دعم رוחي يجعلها مهيبة الجانب، بالرغم من الانتصارات التي حققتها ضد "المغول".

(٢) ليحيط عرشه بسياج من الحماية الروحية يقيه خطر الطامعين في ملك

(١) هُوَ الثَّامِنُ وَالثَّلَاثُونَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَبَّاسِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَبَا، وَكَانَ أَسْمَرَ اللَّوْنُ وَسِمَاءً شَدِيدَ الْقُوَى عَالِي الْهَمَةِ لَهُ شَجَاعَةٌ وَإِقْدَامٌ، وَاتَّقَى لَهُ مَا لَمْ يَتَّقِ لغيره وَهُوَ أَنَّهُ لَقِبَ بِالْمُسْتَنْصِرِ لِقَبِ أَخِيهِ بَانِي الْمَدْرَسَةِ الْمُسْتَنْصِرِيَّةِ بِنِعْدَادٍ وَلَمْ يَقَعْ لغيره أَنْ الْخَلِيفَةَ لِقَبِ أَخِيهِ سِوَاهُ. السلوك، للمقريزي، (١/٥٣٠).

(٢) نهاية الأرب، (٣٠/١٣، ١٤). ويراجع: السلوك لمعرفة دول الملوك، (١/٥٢٩ وما بعدها).

مصر من أمراء الشام، ويبعد عنه كيد منافسيه من أمراء المماليك في مصر الذين اعتادوا الوصول إلى الحكم عن طريق تدبير المؤامرات.

(٣) أن يظهر أمام العالم الإسلامي بمظهر الحامي للخلافة، وتنتظر إليه الشعوب الإسلامية نظرة حامي الإسلام.

(٤) أن يقضي على هذه المحاولات التي بذلها ويبدلها الشيعة في مصر لإعادة إحياء الخلافة الفاطمية.

(٥) أن يضفي على سلطان المماليك مكانة أعلى من مكانة الأمراء والملوك في البلاد الإسلامية الأخرى<sup>(١)</sup>.

وكل هذا يؤكد حنكة السلطان بيبرس وبراعته في إدارة أمور الدولة وسياستها في الداخل والخارج.

**سابعاً: السلطان بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك:** فبرغم من أن الظاهر بيبرس هو ثالث<sup>(٢)</sup> ملوك الترك بعد بني أيوب بمصر والقاهرة<sup>(٣)</sup> فإنه يُعد "المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر والشام أيضاً، وإليه يرجع الفضل في ابتكار الكثير من نظم تلك الدولة ووضع القواعد التي سارت عليها بعد ذلك عدة قرون"<sup>(٤)</sup>.

ويؤكد المؤرخون أن الظاهر بيبرس قد شغل كُرسي السلطنة "سبعة عشر عاماً"، وهي مدة طويلة لم يبلغها أحد من سلاطين دولة المماليك البحرية<sup>(٥)</sup>، عدا

(١) تاريخ المماليك في مصر والشام، (ص ٩٢). ويراجع: جهاد المماليك، (ص ١٦٢).

(٢) فقد ذكر النويري أنه الثالث من ملوك الترك. يراجع: نهاية الأرب، (٣/٣٠).

(٣) يراجع: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، (٣/٦٦٤)، المحقق: خليل شحادة، دار الفكر - بيروت - الطبعة: الثانية، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

(٤) الظاهر بيبرس، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٤٥٥).

(٥) المماليك البحرية: (٦٤٨ - ٧٨٣هـ = ١٢٥٠ - ١٣٨٢م). هي تسمية نسبة إلى أن غالبية سلاطينها من المماليك الذين اشتراهم الأيوبيون وأسكنوهم قلعة جزيرة الروضة في المنيل بالنيل، حيث قضى هؤلاء المماليك على دولة الأيوبيين وتولوا الحكم بعدهم. يراجع: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، (ص ١٠).

السلطان الناصر محمد بن قلاوون<sup>(١)</sup>، وإذا كان السلطان بيبرس قد بقي مدة طويلة في الحكم، فإن ذلك جاء دليلاً على قوته ونجاح سياسته في الحكم من ناحية، فضلاً عن استقرار الأمور له من ناحية أخرى، وقد ساعده على بناء دولة المماليك وتأسيسها في مصر بشكل قوي أمور: أولها: صد أخطار "المغول" و"الصليبيين" عن مصر وبلاد الشام. ثانيها: نشر نفوذه على شبه الجزيرة العربية والنوبة، ثالثها: توطيد الأمن. رابعها: القضاء على الثوار والمناوئين<sup>(٢)</sup>. خامسها: تخفيف الأعباء الملقاة عن كواهل الأهالي. سادسها: وضع قواعد النظام الإداري في مصر والشام في العصر المماليكي، فضلاً عن القيام بقدر ضخم من الإصلاحات المتنوعة<sup>(٣)</sup>.

وقد قيل إن السلطان بيبرس قد سلك في بناء مملكته بمصر على نحو مملكة "جنكيز خان"<sup>(٤)</sup> في دولة "المغول"،

ويأتي في مقابل المماليك البحرية: المماليك البرجية (٧٨٤ - ٩٢٣ هـ = ١٣٨٢ - ١٥١٧ م). وهي تسمية نسبة إلى أن غالبية سلاطينها من المماليك الذين كانوا يسكنون بروج القلعة على جبل المقطم وقت حكم المماليك البحرية، وقد استولوا على حكم مصر بعد المماليك البحرية حتى وقت دخول العثمانيين مصر. يراجع: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، (ص ١١).

(١) الملك الناصر (٦٨٤ - ٧٤١ هـ = ١٢٨٥ - ١٣٤١ م). محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالح أبو الفتح: من كبار ملوك الدولة القلاوونية، له آثار عمرانية ضخمة وتاريخ حافل بجلائل الأعمال، ولي سلطنة القاهرة واستمر (٣٢) سنة وشهرين و (٢٥) يوماً، كانت له فيها سير وأنباء أوردها المقرئ في مجلد ضخم، من آثاره بمصر: الترة المعروفة اليوم بالمحمودية، وتجديد القلعة، والخليج الناصري من خارج القاهرة إلى سرياقوس. الأعلام، (١٠ / ٧، ١١ باختصار).

(٢) قامت ثورتان ضد السلطان بيبرس، وقد استطاع التغلب عليهما، وهما: ثورة الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي أعلن نفسه سلطاناً على بلاد الشام بعد مقتل المظفر قطز، وثورة رجل شيعي عرف بالكوراني بالقاهرة بهدف إحياء العقيدة الشيعية بمصر على حساب عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد استطاع إخمادهما والتغلب عليهما. يراجع: جهاد المماليك، (ص ١٦٠، ١٧١). تاريخ المماليك في مصر والشام، (ص ٩٠ وما بعدها).

(٣) الظاهر بيبرس، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٣٧، ٣٨ بتصرف واختصار).

(٤) جنكيز خان: ولد في "هينتي" بمنغوليا، حوالي عام (١١٦٢ م = ٥٤٨ هـ)، قتل والده وهو في سن الثالثة عشرة من عمره، وذلك عندما كانت القبائل التنترية تقاتل بعضها البعض، واستطاعت أمه أن تربيته على الصبر والكفاح، وكان شجاعاً شديد البأس، النف الناس حوله، وبايعوه حتى أصبح أمير القبائل، استطاع تأسيس دولة قوية، حتى أصبح أمه أن يقوم بفتح العالم بأسره، فسار نحو مملكة الصين، مستخدماً أحدث أدوات القتال في ذلك الوقت، ثم اتجه بعد ذلك ناحية الدولة الخوارزمية، فاكتسحها، واحتل بلاد ما وراء النهر وفارس، وروسيا، والقوقاز، وقبل أن يتوفى قام بتوزيع مملكته على أبنائه، وتوفي عام (١٢٢٧ م)، وقد وصلت الامبراطورية التي أسسها إلى مساحة (٢٦) مليون كم متر مربع تقريباً. يراجع: هولوكو (المارد القادم

فرتب في سلطنته أشياء كثيرة لم تكن قبله بمصر<sup>(١)</sup>.

**ثامناً: وفاته:** توفي السلطان بيبرس في يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم سنة "ست وسبعين وستمائة" من الهجرة، وقد تولى غسله، وتحنيطه، وتصبيره، وتكفينه بعض الفقهاء والأمراء، وكانت مدة مرضه، رحمه الله تعالى، ثلاثة عشر يوماً<sup>(٢)</sup>.

وقد توفي السلطان بيبرس وترك الدولة المصرية بعده تتيه فخراً بجيشها القوي المنظم، وبحدودها الآمنة، وبعلاقتها المنظمة مع الدول الأجنبية، وبجهازها الإداري والقضائي عالي الكفاءة وبقاعدة اقتصادية تركز على أسس ثابتة، وأيضاً ترك لخلفائه ما هو أكثر من ذلك، لقد ترك لهم نموذجاً يقومون بالاحتذاء به، فقد قاد حملاته سواء في خلال أيام الصيف القاطن في بلاد الشام، وفي شهور الشتاء القارصة والتي يتردد "المغول" أنفسهم في القتال فيها، ولقد كان دائم اليقظة والنشاط، ولا ينتظر غير الكمال والتفاني في أداء الواجب، ليس ممن حوله فقط ولكن من نفسه أيضاً، ولقد كان وبلا أدنى درجة من الشك، واحداً من أعظم رجالات عصره<sup>(٣)</sup>.

**تاسعاً: أبرز الأحداث والوقائع في عصره:** لقد حدثت أحداث كثيرة في عصر سلطنة الظاهر بيبرس والتي في مجملها كانت تدور حول انقسام العالم العربي والإسلامي، ومحاولة تسلط "التتار" و"الصليبيين" على البلاد الإسلامية في الشام ومصر<sup>(٤)</sup>، وفي ذلك يقول ابن الأثير - رحمه الله - : "وَلَقَدْ بُلِيَ الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ

من الشرق جزار التاريخ عدو الحضارة)، منصور عبد الحكيم، (ص ٢٧)، دار الكتاب العربي - دمشق - بدون.

(١) نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، (ص ٧).

(٢) نهاية الأرب، (٣٠ / ٢٣٣، ٢٣٤ باختصار). ويراجع في ترجمته: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (٧ / ٩٤ وما بعدها).

(٣) فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (ص ٢٤٧).

(٤) نهاية الأرب، (٣٠ / ٢١).

في هذه المدة بمصائب لم يُبْتَلْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْأُمَمِ، مِنْهَا هَوْلَاءِ التَّتَرِ، قَبَحَهُمُ اللَّهُ، أَقْبَلُوا مِنَ الْمَشْرِقِ، فَفَعَلُوا الْأَفْعَالَ الَّتِي يَسْتَعْظِمُهَا كُلُّ مَنْ سَمِعَ بِهَا، وَمِنْهَا خُرُوجُ الْفَرَنْجِ، لَعَنَهُمُ اللَّهُ، مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الشَّامِ، وَقَصْدُهُمْ دِيَارَ مِصْرَ، وَمَلِكُهُمْ نَعْرَ دِمْيَاطَ مِنْهَا، وَأَشْرَفَتْ دِيَارُ مِصْرَ وَالشَّامِ وَغَيْرَهَا عَلَى أَنْ يَمْلِكُوهَا لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ تَعَالَى وَنَصْرُهُ عَلَيْهِمْ، وَمِنْهَا أَنَّ الَّذِي سَلِمَ مِنْ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ فَالْسَيْفُ بَيْنَهُمْ مَسْئُولٌ، وَالْفِتْنَةُ قَائِمَةٌ عَلَى سَاقٍ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُيسِّرَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ نَصْرًا مِنْ عِنْدِهِ، فَإِنَّ النَّاصِرَ، وَالْمُعِينَ، وَالذَّابَّ، عَنِ الْإِسْلَامِ مَعْدُومٌ<sup>(١)</sup>.

ومن بين الأحداث التي وقعت في عصر السلطان بيبرس: وفاة شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، الذي كان كثير الزهد والإيثار، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وكان له دور كبير في حشد المسلمين في مقاتلة "المغول" و"الصليبيين"<sup>(٢)</sup>.

ومنها: انتصار المسلمين على الفرنج ببلاد الأندلس، وكان ذلك في سنة "اثنين وستين وستمئة"<sup>(٣)</sup>، وحريق القاهرة بحارة الباطنية حتى انتشر في عموم القاهرة، وكان ذلك في سنة "ثلاث وستين وستمئة"<sup>(٤)</sup>، ومن أهم الأحداث التي وقعت في عصره: كسره شوكة الطائفة "الإسماعيلية"<sup>(٥)</sup>، وإبطال رسومهم التي كانت مقررة على ملوك الديار المصرية، وقرر عليهم قطعة يحملونها إلى بيت المال، ثم لم يرضه ذلك إلى أن استولى على حصونهم وانتزعها من أيديهم<sup>(٦)</sup>.

عاشراً: موقع السلطان بيبرس من القادة التاريخيين. لقد استطاع السلطان

(١) الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، (١٠ / ٣٣٥)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان - ط الأولى، (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م). ويراجع: فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (ص ١٦).

(٢) نهاية الأرب، (٣٠ / ٤٠ وما بعدها).

(٣) السابق، (٣٠ / ٦٩).

(٤) نفس المصدر، (٣٠ / ٧٣).

(٥) هي فرقة من فرق الشيعة، وتسمى أيضاً بالباطنية أو القرامطة، ولها آراء ومعتقدات منحرفة خالفت بها الإسلام والمسلمين. يراجع: الملل والنحل، الشهرستاني، (١ / ١٩١ وما بعدها)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م).

(٦) نهاية الأرب، (٣٠ / ١٥٧ وما بعدها).

بيبرس أن يحفر لاسمه مكاناً كبيراً بين القادة التاريخيين في التاريخ الإنساني، وقد أشار إلى ذلك جيمس واترستون عندما قال: "وتستمر سيرة بيبرس في رصد الأحداث فتقول: لم يكن يمر رجل واحد دون أن يقوم السلطان بالنظر جيداً في أي شكاية له، وإذا ما اشتكى أي جندي من قائده فإنه يأمره بإقامة العدالة، والمقارنة بين موقف بيبرس تجاه العدالة بين جنوده وبين "جنكيز خان" صادمة للمرء، ويكشف "ليدل هارت" في كتابه "إمطة اللثام عن قادة عظام" عن موقف "جنكيز خان" تجاه قواته باعتبار ذلك واحداً من مفاتيح نجاحه كقائد، ولكن من الألباز العميقة كيف أخفق ليديل هارت في أن يضم بيبرس في دراساته لأولئك القادة العسكريين العظام"<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن السلطان بيبرس قد حفلت حياته بكثير من الجهود والأحداث التي صنعت منه مقاتلاً عسكرياً بارزاً في ميادين القتال وساحات المعارك، وفي نفس الوقت جعلته سياسياً محنكاً ودبلوماسياً مخضرمًا قادرًا على معاملة الشعوب والأمم الأخرى وفق سياسية رشيدة حققت كثيرًا من المصالح للإسلام والمسلمين ودفعت المفاصد والمضار عنهم.

**حادي عشر: مهارة السياسية والدبلوماسية<sup>(٢)</sup> عند السلطان الظاهر بيبرس:**  
لقد تمتع السلطان بيبرس بالنصيب الأوفى من فنون السياسة والدبلوماسية في الداخل والخارج؛ فقد مثلت سياسته الدرجة الأولى من السياسة في العالم آنذاك، بينما كانت سياسية "المغول" تمثل الدرجة الثانية<sup>(٣)</sup>، كما كان بارعًا في الدبلوماسية

(١) فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (ص ٢٠٥).

(٢) هي إدارة العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات، وأنها الأسلوب الذي تسوى به هذه العلاقات عن طريق السفراء والمبعوثين، وهي عمل الدبلوماسي وفنه، وهي كذلك ما يمارسه من مهارة وحذق في إدارة العلاقات الدولية وإجراء مفاوضات، وتتضمن الذكاء والكياسة لإدارة العلاقات الرسمية بين حكام الدول والإمارات المستقلة وأنها كذلك معالجة المصالح المتداولة بين الدول بالوسائل السلمية. يراجع: الدبلوماسية الإسلامية، (ص ١٩).

(٣) فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (ص ٢٣٧).

العالمية<sup>(١)</sup>، ويمتلك جهازًا استخباراتيًا قويًا؛ استطاع من خلاله النفوذ في بلاط الأمم والممالك الأخرى.

وحول ذلك يقول جيمس واترستون: "وكان منهج بييرس يشبه تمامًا موقف الفارس المخضرم مع حصان لم يتم ترويضه، ويحتوي كتاب الفروسية على نصائح لا تحصى لكيفية ترويض الخيول، ونحن نعلم بالطبع أن بييرس فارس موهوب في ترويض الخيول والحيل التي يتم تأديتها أثناء ركوبها، وكما يقوم بالتحكم في الخيل فهو يقوم بدفع الدولة للحرب عندما يكون واثقًا أنه لا توجد متاعب أمامه، كما كان يقوم بكبح جماحها عندما يكون الخطر ماثلاً أمام ناظريه، باذلاً أقصى جهد ممكن من أجل دراسة المعوقات الماثلة أمامه في المشهد السياسي، وكانت البيانات التي تقوم عيونها بتجميعها من بلاط القصور في أوروبا هي معلومات من الطراز الأول وتستند على كل من الفهم العميق للانقسامات داخل الطوائف المسيحية والتحوليات التي تحدث في التحالفات والعداءات بين السياسيين في أوروبا، كما تستند عمليات الاستخبارات التي يقوم بها على عيونها من شبكة التجسس المكثفة، والتجار العاديين الذين يقومون بتقديم تقاريرهم إلى مكتب مركزي في القاهرة وكانت هوية هؤلاء العملاء تبقى سرية للغاية حتى عن بعضهم البعض، وعندما يقوم هؤلاء العملاء بزيارة السلطان فإنهم يقومون بإخفاء شخصياتهم تحت ستار من الملابس الكثيفة، كما أن رواتبهم لا يتم إدراجها في كشوف حسابات الدولة، وكانت شبكة الجاسوسية هذه تمتد إلى الإليخانات"<sup>(٢)</sup>.

ويختصر أحد المستشرقين<sup>(٣)</sup> مهارات السلطان بييرس في السياسية والدبلوماسية في قوله: "برز بييرس على الساحة كواحد من عباقرة القادة العسكريين في العصور الوسطى، شديد القسوة، ومتوقد الذكاء سواء في الشؤون العسكرية أو السياسية، شأنه

(١) السابق، (ص ٢٤٩).

(٢) نفس المصدر، (ص ١٤٦، ١٤٧).

(٣) جون مان في مقدمته لكتاب: فرسان الإسلام وحروب المماليك.

شأن "جنكيز خان" نفسه، وخاض العديد من الحروب وفي جبهات متعددة ضد "مغول فارس"، و"أرمينيا"<sup>(١)</sup>، و"الصليبيين"، و"النوبة"، كمان كان دبلوماسياً حاذقاً، يتواصل مع "بيزنطة"، ومع "القبيلة الذهبية" (المغول الذين يحكمون جنوب روسيا)، و"صقلية"، و"إسبانيا"<sup>(٢)</sup>.

وبالحديث عن هذه المسألة ينتهي حديثنا عن شخصية السلطان بيبرس وطبيعة عصره وبيئته، وسننتقل - بمشيئة الله تعالى - للحديث عن المبدأ الأول من مبادئ السياسة الخارجية للسلطان بيبرس في المبحث الآتي.

(١) كان السبب الرئيس في جهاد الظاهر بيبرس في أرمينيا هو أن "هيشوم" ملك أرمينيا كان يقوم بتحريض وبمعاودة المغول بالإغارة على الحدود المصرية السورية، فسير بيبرس حملة تأديبية له في عام (١٢٦٢م)، وحملة أخرى في عام (١٢٦٦م)، وقد هزم الملك "هيشوم" فيها هزيمة منكرة، حتى خضع عام (١٢٦٧م) لشروط السلطان بيبرس، ودفع الجزية له، إلى أن تحالف مرة أخرى مع المغول عام (١٢٧٣م)، فقاتله السلطان بيبرس وأخضعه مرة أخرى. يراجع: المماليك في مصر، (صد ٧٣، ٧٤ باختصار).

(٢) جون مان في مقدمته لكتاب: فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (صد ١٧).



## المبحث الثاني

### سياسة صد أخطار "المغول" و"الصليبيين"

لقد ذكرنا في المبحث السابق طبيعة العصر الذي عاش فيه السلطان بيبرس، وقلنا أن العالم الإسلام قد تم استهدافه من قبل "المغول" و"الصليبيين" بشكل كبير؛ لدرجة قتل الخليفة العباسي في بغداد، ومن ثم كانت هناك مهمة كبيرة منوطة بالسلطان بيبرس والمماليك في مصر، وهي: صد أخطار "المغول" و"الصليبيين" على البلاد الإسلامية، وقد ترسخت هذه المهمة في وجدان السلطان بيبرس حتى أصبحت مبدأً من أهم المبادئ التي اعتمد عليها في سياسته الخارجية، وقد بذل السلطان بيبرس جهودًا غير عادية في هذا الأمر حتى أصبح اسم السلطان بمفرده كافيًا لجعل "المغول" و"الصليبيين" يسارعون بالانسحاب من ميدان المعركة<sup>(١)</sup>.

ويقول عنه المقرئ - رحمه الله - : "وَكَانَ قَدْ أَلْقَى اللَّهُ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ أَنَّ السُّلْطَانَ وَحْدَهُ يَقُومُ مَقَامَ الْعَسَاكِرِ الْكَثِيرَةِ فِي هَزِيمَةِ الْأَعْدَاءِ وَأَنَّ اسْمَهُ يَرُدُّ الْأَعْدَاءَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ"<sup>(٢)</sup>.

وبناء على كثرة المعارك التي خاضها السلطان بيبرس معهم قد أصبح خبيراً بالحروب، ذا رأي وتدبير وسياسة، ومعرفة تامة<sup>(٣)</sup>.

ولم يعرف عنه أنه جبن عن ملاقاتهم في ساحات المعارك التي كانوا يعتدون فيها على البلاد الإسلامية، بل قد اشتهر بالشجاعة وصدق الإقدام، يقول عنه ابن كثير<sup>(٤)</sup> - رحمه الله - : "وَكَانَ شَهْمًا شُجَاعًا، أَقَامَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ لِشِدَّةِ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ

(١) فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (ص ٢٠٧).

(٢) السلوك، (٦٤/٢).

(٣) المنهل الصافي، (٤٦٥/٣).

(٤) ابن كثير (٧٠١ - ٧٧٤ هـ = ١٣٠٢ - ١٣٧٣ م). حافظ مؤرخ فقيه، ولد في قرية من أعمال بصرى الشام، وانتقل مع أخ له إلى دمشق سنة (٧٠٦ هـ) ورحل في طلب العلم، وتوفي بدمشق، تناقل الناس تصانيفه في حياته، من كتبه (البداية والنهاية)، و (تفسير القرآن الكريم). الأعلام، (١/ ٣٢٠).

في هَذَا الْوَقْتِ الشَّدِيدِ وَالْأَمْرِ الْعَسِيرِ" (١).

وقال عنه الإمام الذهبي - رحمه الله -: "واشتهر بالشجاعة والإقدام وبعُدَ صِيَّتُهُ" (٢).

وقال أيضاً: "ولمّا سارت الجيوش المنصورة من مصر لحرب التتار كان هُوَ طليعة الإسلام" (٣).

وسنتناول في هذا المبحث ثلاث مسائل على النحو الآتي:

**المسألة الأولى: جهود السلطان بيبرس في صد أخطار "المغول" و"الصليبيين" قبل السلطنة.**

**أولاً: جهوده في صد أخطار "المغول".**

لقد كانت للسلطان بيبرس جهوداً متعددة في الدفاع عن البلاد الإسلامية وصد حملات "المغول" قبل توليه السلطنة، فعندما سقطت بغداد على يد "المغول" وأشاعوا فيها القتل والنهب، وأصبحوا يهددون الشام ومصر، تخوف بعض الأمراء من عاقبة "المغول"، وبحثوا إمكانية الخضوع لهم، فنادى الأمير زين الدين الحافظي بالاستسلام لهولاكو وجيوشه (٤)، فعندئذ ثار بيبرس ولطم ذلك الأمير على وجهه وسبّه قائلاً: "أنتم سبب هلاك المسلمين" (٥).

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، (١٣ / ٢٥٨)، المحقق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط الأولى (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م).

(٢) تاريخ الإسلام، (١٥ / ٣٠٧).

(٣) السابق، (١٥ / ٣٠٧).

(٤) ذكر النويري أن زين الدين الحافظي هذا كان خائناً، وقد قتله هولاكو بسبب خيانتته المعتادة للملوك والدول، فقال: "وفي أواخر سنة اثنتين وستين وستمانه، أحضر هولاكو زين الدين المعروف بالحافظي، وقال له ما معناه: قد ثبت عندي خيانتك وتلاعبك بالدول، وأنتك خدمت صاحب بعلبك طبيباً، فخنثته، واتفقت مع غلمانه على قتله. ثم انتقلت إلى خدمة الملك الحافظ الذي عرفت به ونسبت إليه، فلم تلبث أن خنثته، وباطنت الملك الناصر حتى أخرجت قلعة جعبر عن يد مخدمك، ثم انتقلت إلى خدمة الملك الناصر فخنثته معي، ثم انتقلت إلى، فأحسنيت إليك إحساناً لم يخطر ببالك أن تصل إلى بعضه مني، وقد شرعت تعاملني بما عاملت به الملك الناصر. وعدد له دنوباً أخر من خيانتته في الأموال التي كانت قد ندبه لاستخراجها من البلاد، وأمر بقتله هو وأهله". نهاية الأرب، (٣٠ / ٧٠).

(٥) الظاهر بيبرس، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٣٠).

ثم طلب من الملك الناصر أربعة آلاف فارس يقوم بها إلى شط الفرات يمنع "المغول" من العبور إلى الشام، فلم يمكنه الملك الناصر صاحب حمص؛ لباطن كان له مع "المغول"<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الموقف يبدو أن بيبرس قد حاول في بداية الأمر إثشاء الأمرء الدمشقيين عن الاستسلام للمغول، وحثهم على الدفاع عن حوزة الإسلام والمسلمين، لكن - وكما تذكر الروايات - أنه عندما شاهد تخاذلهم، وانقسامهم، قرر الاتحاد مع دولة "المماليك" الفتية في مصر؛ لذا رأى بيبرس ترك دمشق وحاكمها وأمرائها، والعودة إلى بني جنسه في مصر وإنهاء الخلافات معهم<sup>(٢)</sup>، والإعداد الجيد للمعركة الفاصلة بين المسلمين و"المغول" في "عين جالوت"<sup>(٣)</sup>.

وبالفعل فقد كانت معركة "عين جالوت" فاتحة العلاقات العدائية بين "المماليك" و"المغول"، فقد نظر "المغول" إلى مصر كبلد يتمتع بمميزات استراتيجية؛ لذلك خططوا للاستيلاء عليه، ورأى حكام مصر من جانبهم أن يعملوا على كسر شوكة هؤلاء الطامعين في إذلالهم من جهة، ونظرًا لما ارتكبه بحق الإسلام والمسلمين في العراق وبلاد الشام من أعمال وحشية من جهة أخرى<sup>(٤)</sup>.

(١) المنهل الصافي، (٣/ ٤٥١). لقد أقدم الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق على إعلان خضوعه لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة، وتبادل معه الهدايا والتحف عن طريق ابنه العزيز، وطلب منه نجدة لمساعدته في استعادة الأراضي المصرية من أيدي المماليك. يراجع: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، (ص ٧١).

(٢) حدثت خلافات متعددة بين المماليك في مصر بعد الانتصار على الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع، وبالتحديد بعد مقتل "توران شاه" آخر الحكام الأيوبيين لمصر، وقد اشترك الظاهر بيبرس في قتله سنة (٦٤٨هـ)، ثم تطورت هذه الاختلافات إلى أن وصل عز الدين أيبك إلى الحكم واختلف مع الفارس أقطاي وقتله سنة (٦٥٢هـ) بمساعدة قطز، وكان بيبرس من أنصار أقطاي، فلما قتل أقطاي خشي بيبرس ومن معه من المماليك من أنصار أقطاي أن يبيتش عز الدين أيبك بهم، فهربوا إلى بلاد الشام ليحتموا بظل الملوك الأيوبيين هناك. يراجع: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، (٤٧ وما بعدها).

(٣) جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، (ص ١٠٧). ويؤكد جيمس واترسون أن عودة بيبرس مع رفاقه من المماليك البحرية في مارس (١٢٦٠م) هي التي شجعت المظفر قطز بخوض الحرب مع المغول. فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (ص ١٠٦).

(٤) يؤكد جيمس واترسون: أن المماليك بزوا المغول وتفوقوا عليهم في ميادين القتال وأنهم أفضل فرسان العصور الوسطى، وأنهم قد تفوقوا عليهم بشكل واضح في كل أنواع الحروب. فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (ص ٢٤١ وما بعدها).

وعندما عاد بيبرس إلى مصر اتحد مع المظفر قطز، وقد ارتأى فيه قطز شجاعة وشدة إقدام، فطلب منه أن يسير في عسكر؛ ليتجسس أخبار "المغول" قبيل معركة "عين جالوت"؛ فسار بيبرس حتى نزل غزة في شعبان من سنة (٦٥٨هـ)، فلقى بها جمعاً من "المغول"، فناوشهم القتال؛ حتى كسرهم ثم تبعهم يقتص آثارهم، ويقتل من وجد منهم، ثم عاد؛ فوافى المظفر قطز بدمشق قبيل المعركة<sup>(١)</sup>.

وقد ترتب على هذا الانتصار بقيادة الظاهر بيبرس أن كان دافعاً قوياً للمسلمين للتقدم إلى قتال "المغول" بعين جالوت، وكذلك مسارعة "الصلبيين" إلى خطب ود المسلمين بتقديم يد العون والمساعدة لهم والسماح لجيوش المماليك بعبور أراضيهم إلى داخل فلسطين، أو يبدوا أن ذلك الانتصار قد وُلد مزيداً من الخوف والفرح لدى "الصلبيين"، وقضى على آمالهم في ضرب المسلمين بالمغول وإنهاك كلا القوتين لضمان بقائهم في ساحل بلاد الشام<sup>(٢)</sup>.

ولما انتهت معركة "عين جالوت" لم يشغل الظاهر بيبرس ما قاساه من التعب في المعركة؛ بل ساق خلف "المغول" فوجدهم قد تجمعوا ووجدوا صفوفهم للمرة الثالثة استعداداً لمواجهته، فهاجمهم بكل شجاعة، وكسرهم كسرة شنيعة، وغنم منهم أموالاً طائلة وخيولاً كثيرة<sup>(٣)</sup>.

### ثانياً: جهوده في صد أخطار "الصلبيين".

"في أخريات القرن الحادي عشر للميلاد، بدأت القوات الصليبية زحفها من غرب أوروبا متجهة نحو المشرق الإسلامي، وهي مدفوعة برغبة ملحة للاستيلاء على بيت المقدس وإقامة دولة لاتينية في فلسطين ونحوها من البلاد الشامية، واستغل "الصلبيون" ما ساد دول المسلمين وإماراتهم من تفكك، ونجحوا في تحقيق هدفهم، وأقاموا مجموعة من الإمارات اللاتينية التي تكونت منها تلك الدولة

(١) المنهل الصافي، (٣/ ٤٥١). ويراجع: فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (صد ١٠٩).

(٢) جهاد المماليك ضد المغول والصلبيين، (صد ١٤١، ١٤٢).

(٣) السابق، (صد ١٤٥).

الصليبية التي عرفت باسم "مملكة بيت المقدس اللاتينية" ، والتي استمر بقاؤها زهاء قرنين من الزمان امتدادًا من أواخر القرن الحادي عشر إلى أخريات القرن الثالث عشر للميلاد.

وإبان إقامة "الصليبيين" في الشرق، ومع توافد حملات صليبية جديدة لتدعيم مركزهم ضد المسلمين، كان من الطبيعي أن يصبح القتال والتصارع ظاهرة أساسية في العلاقات بين الجانبين، وذلك لما كان هناك من اختلافات دينية وعنصرية، وتباين في المقومات والخصائص الحضارية، هذا فضلًا عن التعارض في المصالح؛ فإن الوجود الصليبي في الشام كان بالنسبة للمسلمين عدوانًا على دار الإسلام واغتصابًا لها<sup>(١)</sup>.

وفي خضم هذا التصارع والافتتال شارك الظاهر بيبرس في دفع خطر هجوم "الصليبيين" على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا في عام (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م)، والذي قاد الحملة الصليبية السابعة التي كانت تهدف إلى احتلال مصر وإضعافها بشكل كبير؛ لأنها تعتبر مفتاح بيت المقدس، وبوابة الشام، ولما كانت تمتع به من ثروات اقتصادية واجتماعية متعددة.

وقد كان للظاهر بيبرس دور واضح وكبير في دفع هذا الخطر وتعبه حتى تم استئصال شأفته في عموم البلاد المصرية<sup>(٢)</sup>.

وحول هذا الأمر يقول المقرئ المبرزين رحمه الله: "وإذا بالفرنج اقتحموا على المنصورة، ففترق الناس وانهزموا يمينًا وشمالًا، وكانت الكسرة أن تكون؛ فإن الملك ريدفرنس وصل بنفسه إلى باب قصر السلطان، إلا أن الله تدارك بلطفه وأخرج إلى الفرنج الطائفة التركية، التي تعرف بالبحرية والجمدارية، وفيهم ركن الدين بيبرس البندقداري الذي تسلطن بعد هذه الأيام، فحملوا على الفرنج حملة

(١) الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، (ص ٢٤).

(٢) يراجع: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، (ص ٢٨ وما بعدها).

زعزعوهم بها وأزاحوهم عن باب القصر"<sup>(١)</sup>.

ومما سبق يظهر لنا أن السلطان بيبرس قد كانت له أياد بيضاء في دفع الأعداء عن مصر والعالم الإسلامي قبل توليه السلطنة.

**المسألة الثانية: جهود السلطان بيبرس في صد أخطار "المغول" و"الصليبيين" بعد توليه السلطنة.**

لقد أدرك السلطان بيبرس بعد توليه السلطنة أن دولته تواجه تحدياً قوياً يربط اثنين من ألد أعدائه هما "الصليبيون" و"المغول"<sup>(٢)</sup>، وقد تكون الاتجاهات والمصالح الخاصة لهذين الخصمين متباعدة أو متعارضة، ولكن غاية واحدة ربطت بينهما، هي: العمل على اجتياح البلدان العربية في الشرق الأدنى، وإذا كان السلطان بيبرس قد أدرك هذه الحقيقة، فإن سياسته قد اتجهت إلى القضاء على كل من هذين الخصمين على حدة<sup>(٣)</sup>.

ولا يكاد الباحث في تاريخ السلطان الظاهر بيبرس يتتبع حروبه بعد توليه السلطنة حتى تواجهه حقيقة كبرى، وهي: أنه لا يمكن وضع خط فاصل بين حروبه ضد "الصليبيين" وحروبه ضد "المغول"، فالواقع أن الظاهر بيبرس كثيراً ما كان يحارب الطرفين في وقت واحد، أو يخرج لحرب أحدهما فيخوض غمار الحرب ضد الآخر<sup>(٤)</sup>.

وقد كُلت سياسة السلطان بيبرس في صد أخطار "المغول" و"الصليبيين" بثلاث نتائج:

**النتيجة الأولى: كسر "المغول" وإفشال محاولاتهم في إعادة السيطرة على بلاد الشام.**

فقد قدر السلطان بيبرس منذ أن تسلم الحكم أن "المغول" لا بد من أن يأخذوا بثأرهم بعد انهزامهم جيشهم في "عين جالوت"، ومقتل قائدهم "كتبغا"؛ لذا قرر أن

(١) السلوك، (١/٤٤٧، ٤٤٨).

(٢) يراجع: تاريخ المماليك في مصر والشام، (ص ١١٦).

(٣) الظاهر بيبرس، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٥٧ وما بعدها باختصار وتصرف).

(٤) الظاهر بيبرس، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٨٨ بتصرف).

يكون على أهبة الاستعداد لمنازلة "المغول" بعد ذلك في ساحات المعارك، وبالفعل فقد قام بصد عدوانهم وخطرهم على البلاد الإسلامية حتى كسر شوكتهم واستأصل شأفتهم<sup>(١)</sup>.

وحول ذلك يقول ابن كثير - رحمه الله -: "وقد كان "هولاكو خان" لما بلغه ما جرى على جيشه من المسلمين بـ "عين جالوت" أرسل جماعة من جيشه الذين معه كثيرين ليستعيدوا الشام من أيدي المسلمين، فحيل بينهم وبين ما يشتهون فرجعوا إليه خائبين خاسرين، وَذَلِكَ أَنَّهُ نَهَضَ إِلَيْهِمُ الْهَزْبُ الْكَاسِرُ وَالسَّيْفُ الْبَاتِرُ الْمَلِكُ الظاهر، فقدم دمشق وأرسل العساكر في كل وجه لحفظ الثغور والمعازل بالأسلحة، فلم يقدر "التتار" على الدنو إليه، وَوَجَدُوا الدَّوْلَةَ قَدْ تَغَيَّرَتْ، وَالسَّوَاعِدَ قَدْ شُمِّرَتْ، وعناية الله بالشام وأهله قد حصلت، ورحمته بهم قد نزلت، فعند ذلك نكصت شياطينهم على أعقابهم، وكروا راجعين القهقري، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات"<sup>(٢)</sup>.

### النتيجة الثانية: إنهاء التواجد الصليبي في بلاد الشام.

فعلى الرغم من أن وسائل القضاء عليهم قد توفرت منذ انهزامهم في موقعة المنصورة سنة (١٢٥٠م) إلا أنه لم يشرع في القضاء على دولتهم ببلاد الشام بشكل نهائي إلا منذ تولي بيبرس سلطنة مصر سنة (١٢٦٠م)<sup>(٣)</sup>.

وقد رأى السلطان بيبرس ضرورة متابعة سياسة "صلاح الدين الأيوبي"<sup>(٤)</sup>

(١) يراجع: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، (ص ١٣٦).

(٢) البداية والنهاية، (١٣/ ٢٥٨).

(٣) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، د/ محمد جمال الدين سرورو، (ص ٧٤).

(٤) صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٩هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣م). من أشهر ملوك الإسلام، استطاع القضاء على الدولة الفاطمية بمصر، وكانت له جهود بارزة في دفع غارات الصليبيين ومهاجمة حصونهم وقلاعهم في بلاد الشام، ودانت لصلاح الدين البلاد من آخر حدود النوبة جنوبا وبرقة غربا إلى بلاد الأرمن شمالا، وبلاد الجزيرة والموصل شرقا. وكان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي " يوم حطين " الذي تلاه استرداد طبرية وعكا ويافا إلى ما بعد بيروت، ثم افتتاح القدس (سنة ٥٨٣)، مات ولم يدخر لنفسه مالا ولا عقارا، وكانت مدة حكمه بمصر ٢٤ سنة، ويسورية ١٩ سنة. الأعلام، (٨/ ٢٢٠) وما بعدها باختصار).

وخلفائه في طرد "الصليبيين"، وإجلائهم عن الشرق الأدنى، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، فإنه كان عليه أن يجابه ما تبقى من الإمارات الصليبية وهي "أنطاكية"، و"طرابلس"، والجزء الثاني من مملكة بيت المقدس.

وحتى يتحقق هدفه اتبع استراتيجية عسكرية قائمة على ضرب هذه الإمارات الواحدة تلو الأخرى، ولم تتفرض سنة من السنوات العشر الواقعة بين عامي (٦٥٩ - ٦٦٩هـ / ١٢٦١ - ١٢٧١م)، دون أن يوجه إليهم حملة صغيرة أو كبيرة وكان ينتصر عليهم في كل مرة<sup>(١)</sup>.

**وحول ذلك يقول جون مان:** "وتحت قيادة سلطانهم الأعظم بيبرس شنوا هجماتهم الباسلة على قلاع الصليبيين حتى تلك التي استعصت على حروب صلاح الدين الأيوبي، وقام بيبرس بعد أن قام بإخضاع وتوحيد كل من مصر وبلاد الشام تحت قيادته بتوجيه عدة ضربات قاصمة للصليبيين والتي أضحت مصيرها المحتوم واضحا للعيان حتى وفاته في عام (١٢٧٧م)"<sup>(٢)</sup>.

ويقول جيمس واترستون: "وبينما جعل صلاح الدين من القدس محورا لجهاده، فإن الحرب المقدسة لبيبرس كانت أكثر شمولاً"<sup>(٣)</sup>.

### النتيجة الثالثة: كثرة الفتوحات الإسلامية.

وقد عدد المؤرخون هذه الفتوحات في كتاباتهم، وذكروا أحداثها ورواياتها بشيء من التفصيل، وما يكفينا هنا فقط هو ذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر، يقول ابن تغري بردي - رحمه الله -: "وفتح عدة فتوحات من أيدي الفرنج وهي: قيسارية، وأرسوف، وصفد، وطبرية، ويافا، والشقيف، وأنطاكية، وبغراس، والقصير، وحصن الأكراد، وحصن عكار، وصافينثا، ومرقية، وطرابلس،

(١) تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، (ص ١١٩).

(٢) فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (ص ١٧).

(٣) السابق، (ص ١٧٦).

وبلاد أنطربطوس، وناصفهم على المرقب وبانياس<sup>(١)</sup>.

وقال الصفدي - رحمه الله -: "فتوحاته رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: قيسارية، أرسوف، صغد، طبرية، يافا، الشقيف، أنطاكية، بغراس، القصير، حصن الأكراد، حصن عكار، القرين، صافيتا، مرقية، حلبًا، وناصف الفرنج على المرقب، وبُلُنْيَاس، وبلاد أنطربطوس وعلى سائر ما بقي في أيديهم من البلاد والحصون، وولى في نصيبه لولاة والعمال، واستعاد من صاحب سيس: درب ساك ودركوش، وبُلَيْش، وكفر دنين ورعبان والمزربان.

وملك من المسلمين: دمشق وبعلبك، وعجلون، وبصرى، وصرخد، والصلت، وحمص، وتدمر، والرحبة، وزليبا، وتل بآشر، وصهيون، وبلاطنس، وبرزيه، وحصون الإسماعيلية، والشوبك والكرك، وشيزر، والبيرة، وفتح الله عليه بلاد النوبة ودنقلة وغيرها<sup>(٢)</sup>.

وعن جهود المماليك بقيادة السلطان بيبرس يقول جون مان: "في حقبة من حقب التاريخ، كان العالم الإسلامي في الشرق الأوسط يتميز ببساطة وخصوصية عظيمة، ولكن تم تحطيم ذلك لفترة طويلة عن طريق مؤامرات المنافسين بحلول القرن الثالث عشر، فقد قامت أوروبا بالدخول في مغامرة استغرقت مائتي عام، والتي تبدو الآن تعبيرًا سقيمًا عن التعصب الديني، حيث قام "الصليبيون" من العديد من الأمم بتأسيس أربع دول على طول شرقي شواطئ حوض البحر الأبيض المتوسط، وجاء "المغول" حينئذ للشرق الأوسط قافزين من قلب آسيا الوسطى في منتصف القرن الثالث عشر، وفي خضم هذا الغليان القومي والديني بزغ شمس عسكر "المماليك"، الذين كانوا عبيدًا فيما سبق ليحكموا مصر متطلعين إلى استعادة

(١) المنهل الصافي، (٣/٤٦٥).

(٢) الوافي، (١٠/٢١٢). وقد ذكر المؤرخ شهاب الدين النويري هذه الفتوحات في كتابه: نهاية الأرب، تحت عنوان: "ذكر غزوات السلطان وفتوحاته وما وقع من المصالحات والمهادنات، (٣٠/٦١ وما بعدها).

مجد الإسلام من خلال الجهاد في جبهتين، واستطاعوا في خلال ثلاثين عاماً فقط أن يرغموا "المغول" على التوقف صاغرين، كما قاموا بدحر "الصليبيين" وإرغامهم على العودة إلى أوروبا<sup>(١)</sup>.

**المسألة الثالثة: سياسة السلطان بيبرس في صد أخطار "المغول" و"الصليبيين" في ضوء الدعوة الإسلامية.**

يحسن بنا ونحن نتحدث عن سياسة السلطان بيبرس في دفع "المغول" و"الصليبيين" أن نبين قيمة هذه السياسة في نظر الإسلام، وذلك على النحو الآتي:

**أولاً: سمات سياسة السلطان بيبرس في صد أخطار "المغول" و"الصليبيين".**

**السمة الأولى:** أنها كانت من قبيل دفع عدوان واعتداء "المغول" و"الصليبيين" على البلاد الإسلامية، ولم يثبت أن السلطان بيبرس قد ابتدأهم بعدوان قط، إلا إذا كانوا قد اغتصبوا أرضاً من بلاد الإسلام، أو تعاونوا في الخفاء على قتال المسلمين، أو كانوا قطاع طرق، أو غدروا بالمسلمين، أو نقضوا عهداً أو هدنة، ومن بين الأمثلة التي تؤكد ذلك ما يلي:

- أن السلطان الظاهر بيبرس قد توجه إلى جهة العباسية بمصر في أوائل سنة "ثلاث وستين وستمئة" للصيد ورمي البندق، فأنته الأخبار أن "المغول" قد جمعوا ونازلوا "البيرة"<sup>(٢)</sup>، فأمر الأمراء بتجهيز الجند من أجل محاربتهم، ثم توجهت العساكر إلى موقع المعركة، ثم تجهز السلطان بنفسه حتى وصل غزة، فوصلت كتب النواب: إن العدو نصب على "البيرة" سبعة عشر منجنيقاً، فأمر العساكر بالإسراع إلى مقاتلة التتار وقال لهم: متى لم تدرکوا هذه القلعة؟ وإلا سقت إليها

(١) فرسان الإسلام وحروب المماليك، (ص ١٥).

(٢) قال ياقوت الحموي: "بلد قرب سميساط بين حلب والنغور الرومية، وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع". معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، (١/٥٢٦)، دار صادر، بيروت - ط الثانية، (١٩٩٥م).

- بنفسي جريدة<sup>(١)</sup>، فأسرع العسكر حتى وصلوا "البيرة" فعندما شاهدتهم "المغول" هربوا، ورموا مجانيقهم وغرقوا مراكبهم، وانهمزوا لا يلوي أحد منهم على أحد<sup>(٢)</sup>.
- ما ورد أن السلطان بيبرس قد غزا قرية "قارا"<sup>(٣)</sup> عندما توجه من دمشق ليلقى عساكره الواردة من "سيس"<sup>(٤)</sup>، وكان سبب ذلك أن أهل القرية كانوا يقطعون الطريق، ويأسرون المسلمين ويبيعونهم في الأسواق، وقد اعتادوا ذلك أكثر من مرة حتى اكتشف السلطان أمرهم<sup>(٥)</sup>.
- أن السلطان قد غزا "يافا"<sup>(٦)</sup> وفتحها بعدما كان الصلح قد استقر بينه وبين صاحب "يافا"، إلا أن نوابه صاروا يتعدون، وسيروا متجرمة في زي صيادين للإغارة على البلاد الإسلامية، واعتدوا على مجموعة من المسلمات، واعتمدوا أسبابًا ليست في الهدنة، فعندئذ قرر السلطان قتالهم وتأديبهم<sup>(٧)</sup>.
- وكان السبب الرئيس لفتح مدينة "عكا" هو نقض "الصليبيين" للهدنة التي عقدها السلطان الظاهر بيبرس معهم، وكان ذلك في سنة (٦٦١هـ)<sup>(٨)</sup>.
- وفي سنة (٦٦٢هـ) أغار هيثوم الأول ملك "أرمينية الصغرى" على الأجزاء الشمالية من بلاد الشام، ولما علم السلطان الظاهر بيبرس بذلك أمر عساكره في دمشق وحمص بالخروج إليه، فانهزم هيثوم وولى الأرمن الأدبار<sup>(٩)</sup>.

(١) أي جماعة من أمهر الفرسان. يراجع: لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، (٣/١١٨)، دار صادر - بيروت - ط الثالثة - (١٤١٤هـ).

(٢) نهاية الأرب، (٣٠/١٦٦، ١٦٧ باختصار وتصرف). ويراجع: جهاد المماليك، (صد ٢٠٣).

(٣) قرية قريبة من حمص. معجم البلدان، (٢/٣٠٣).

(٤) سيسيئة: وعامة أهلها يقولون سيس: بلد من مدن النغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس. معجم البلدان، (٣/٢٩٧).

(٥) نهاية الأرب، (٣٠/١٨٦). ويراجع: فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (صد ١٥٧).

(٦) مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا في الإقليم الثالث. معجم البلدان، (٥/٤٢٦).

(٧) نهاية الأرب، (٣٠/١٧٢).

(٨) جهاد المماليك، (صد ١٩٩).

(٩) السابق، (صد ٢٠٢).

- وكذلك فتح السلطان بيبرس "مملكة النوبة"، ولم يكن ليتم إلا بعد أن استغل "داود" ملك "النوبة" فرصة انهماك بيبرس ضد "الصليبيين" و"المغول" و"الأرمن"، فهاجم جنوبي مصر في عام (٦٧١هـ/١٢٧٢م)، فنهب "أسوان" وأسر جماعة من سكانها، كما هاجم ميناء عيذاب على شاطئ البحر الأحمر، بهدف تهديد التجارة المملوكية في البحر الأحمر وقطع طريق الحج، ومن ثم أرسل السلطان بيبرس حملة لفتح مملكة النوبة وصد اعتداءاتها المتكررة<sup>(١)</sup>.

وهكذا كانت كل معارك السلطان بيبرس؛ إما دفع عدوان، أو تأديب من نقض العهد، أو قتال من غدر المسلمين.

**السمة الثانية:** أن السلطان بيبرس كان يحرص على أن يصحبه في الجهاد: الفقهاء والعباد والنساء الصالحات من أجل ألا تقع المنكرات في ميادين الجهاد، وأن يسهموا في تعزيز عقيدة الدفاع عن الإسلام والمسلمين في نفوس العساكر.

ومثالاً على ذلك يقول شهاب الدين النويري - رحمه الله -: "وحضر في هذه الغزاة - أي إحدى غزوات السلطان بيبرس - جمع كبير من العباد والزهاد والفقهاء والفقراء وأصناف العباد، ولم يعهد فيها خمر ولا شيء من الفواحش، بل كانت النساء الصالحات يسقين الماء ويجررن في المجانيق، وأطلق السلطان لجماعة من الصالحين الرواتب"<sup>(٢)</sup>.

**السمة الثالثة:** زهده وورعه في الغنائم والفتوحات التي يفتحها، فعندما فتح "أرسوف"<sup>(٣)</sup> في تاسع وعشرين جمادى الأولى من سنة "ثلاث وستين وستمئة"، ولما خلت القلعة من الفرنج أباحها السلطان للمسلمين بجميع ما فيها من أموال وغلل وذخائر، وكان بها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض السلطان لشيء منها

(١) تاريخ المماليك في مصر والشام، (ص ١١٥). ويراجع: المماليك في مصر، أحمد زقلمة، (ص ٦٨)، مكتبة مدبولي - مصر - ط الأولى (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

(٢) نهاية الأرب، (٣٠/ ١٨٩ وما بعدها).

(٣) أرسوف: بالفتح ثم السكون، وضم السين المهملة، وسكون الواو، وفاء: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا. معجم البلدان، (١/ ١٥١).

إلا لما اشتراه بالمال<sup>(١)</sup>.

وكان يقوم بتوزيع الأراضي والغنائم على الأمراء والعساكر بالتراضي، ولا يأخذ لنفسه شيئاً، وكان يؤثرهم على نفسه في كل الأمور، حتى قال فيه أحد الشعراء:

فتى جعل البلاد من العطايا ... فأعطى المدن واحتقر الضياعا  
سمعنا بالكرام وقد رأينا ... عيانا ضعف ما فعلوا سماعا  
إذا فعل الكرام على قياس ... جميلا كان ما فعل ابتداء<sup>(٢)</sup>.

السمة الرابعة: الإحسان إلى الأسرى ومعاملتهم معاملة حسنة، ومن الشواهد التي تؤكد ذلك أن السلطان عندما غزا "سيس" قد أسر ملكها، وأحسن إليه ومن معه في الأسر<sup>(٣)</sup>.

ولا شك أن الدعوة الإسلامية قد حثت على ضرورة الإحسان إلى الأسرى وحسن معاملتهم، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَعْزِمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُوْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [الأنفال: ٧٠]. وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾. [الإنسان: ٨].

وقد حفلت السيرة النبوية بالوقائع والأحداث التي تبين حسن معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للأسرى، ومن ذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْلًا قَبْلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثَمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثَمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقَتَّلَنِي تَقَتَّلَ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَتَّعَمَ

(١) نهاية الأرب، (٣٠/ ١٧٢).

(٢) نهاية الأرب، (٣٠/ ١٧٣) وما بعدها باختصار وتصرف.

(٣) السابق، (٣٠/ ١٨٧).

تُنْعِمُ عَلَيَّ شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرِكَ حَتَّى كَانَ الْغَدَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تَنْعَمُ تَنْعَمُ عَلَيَّ شَاكِرٍ، فَتَرِكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، فَقَالَ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ» فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلِ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاعْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَيَّ الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينَكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ، وَإِنْ خَيْلِكَ أَخَذْتَنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَوْتَ، قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَسَلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا وَاللَّهِ، لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٌ، حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ<sup>(١)</sup>.

وهذه السمات تؤكد أن السلطان بيبرس قد تخلق بأخلاق الدعوة الإسلامية في حروبه ضد الأعداء.

### ثانياً: فرضية دفع الصائل<sup>(٢)</sup> والمعتدي في الإسلام.

لقد جعلت الدعوة الإسلامية أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم من المسالمين هي السلم وليست الحرب، أما من حارب المسلمين واعتدى عليهم فقد وجب رد اعتدائه ودفع عدوانه، لذا فإن "أساس علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول لا تغاير ما قرره علماء القانون الدولي أساساً لعلاقات الدول الحاضرة، وأن الإسلام يجنح للسلم لا للحرب، وأنه لا يجوز قتل النفس لمجرد أنها تدين بغير الإسلام، ولا يُبيح للمسلمين قتال مخالفيهم لمجرد المخالفة في الدين وإنما يأذن في

(١) صحيح البخاري، ك المغازي، ب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، رقم (٤٣٧٢).  
(٢) قال ابن فارس: " (صَوَل) الصَّادُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ أَصْلُ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى قَهْرٍ وَعُلُوٍّ. يُقَالُ: صَلَّى عَلَيْهِ يَصُولُ صَوْلَةً، إِذَا اسْتَطَالَ". معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، (٣/ ٣٢٢)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

قتالهم ويوجبه إذا اعتدوا على المسلمين، أو وقفوا عقبة في سبيل الدعوة الإسلامية ليحولوا دون بثها فحينئذ يجب القتال دفاعاً للعدوان وحماية للدعوة حتى إذا لم يكن من المخالف في الدين عدوان لا على المسلمين ولا على دعوتهم فلا يحل قتاله، ولا تحرم معاملته ومبادلته المنافع، فلم يؤذن في القتال لأنه طريق الدعوة إلى الدين وإنما أذن فيه لحماية الدعوة من اعتداء المعتدين<sup>(١)</sup>.

وقد أكدت النصوص الدينية فرضية قتال الصائل والمعتدي، ومنها قوله تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ). [البقرة: ١٩٠]. وقوله تعالى: (وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ). [البقرة: ١٩١].

وَعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْفٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»<sup>(٢)</sup>.

ولم يكتف الإسلام بذلك فقد حرم التولي يوم الزحف، أي الفرار والتولي أثناء المعركة وقت جهاد الأعداء المعتدين والغاصبين، وجعل هذا التولي من أكبر الكبائر والسبع الموبقات؛ لما يترتب عليه من ضياع البلاد، وانتهاك الأعراس، واختلال صفوف الجيش، ووقوع الهزيمة وغير ذلك، وقد نقل ابن الأزرق الغرناطي الإجماع على ذلك<sup>(٣)</sup> لما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكَ بِاللَّهِ، وَالسَّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ،

(١) السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية، عبد الوهاب خلاف (المتوفى: ١٣٧٥هـ)، (ص ٧٩، ٨٠)، دار القلم، الطبعة: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

(٢) سنن النسائي، ك تحريم الدم، ب من قاتل دون دينه، (١١٦ / ٧)، رقم (٤٠٩٥).

(٣) بدائع السلك في طبائع الملك، محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي، أبو عبد الله، شمس الدين الغرناطي ابن الأزرق (المتوفى: ٨٩٦هـ)، (٢ / ٥٦)، المحقق: د/ علي سامي النشار، وزارة الإعلام - العراق - ط الأولى.

وَقَذَفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»<sup>(١)</sup>.

وقد قال الإمام السرخسي - رحمه الله -: «لَا أَحَبُّ لِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِهِ قُوَّةٌ أَنْ يَفْرَّ مِنْ رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَهَذَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ ذُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُنْحَرِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال: ١٦] . وَفِيهَا تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ مَعْنَاهُ: وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ ذُبْرَهُ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُنْحَرِّزًا إِلَى فِئَةٍ، أَيْ سَرِيَّةً، لِلْقِتَالِ بِالْكَرَّةِ عَلَى الْعَدُوِّ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ.

أَوْ مُنْحَرِّزًا إِلَى فِئَةٍ: أَيْ يَنْحَازُ فَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ. يُقَالُ: تَحَوَّرَ وَتَحَيَّرَ إِلَى فُلَانٍ: أَيْ انْضَمَّ إِلَيْهِ. وَالْفِئَةُ: الْقُوَّةُ وَالْجَمَاعَةُ»<sup>(٢)</sup>.

ووفق هذه النصوص فإن سياسية السلطان بيبرس في صد أخطار "المغول" و"الصليبيين" هي سياسة شرعية؛ حيث إنهم هم المعتدين والغاصبين، وكان فرضاً محتماً عليه أن يقوم بما ينبغي لحماية المسلمين وبلادهم مقدساتهم.

(١) صحيح البخاري، ك الوصايا، ب قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا، إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء: ١٠]، رقم (٢٧٦٦).

(٢) شرح السير الكبير، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ)، (١/١٢٣)، الشركة الشرقية للإعلانات، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: (١٩٧١م).

### المبحث الثالث

#### سياسة عقد المعاهدات والتحالفات

في الوقت الذي كان السلطان بيبرس يجاهد ويصد فيه أخطار المعتدين والغاصبين، لم يكن أبداً أن يرفض سياسة الجنوح للسلم والمهادنة إذا أتاحت الفرصة لذلك، وطالما كانت مصلحة الإسلام والمسلمين، وفي الجانب الآخر حرص على أن يتحالف مع غيره من القادة المسلمين الآخرين؛ بهدف التنسيق والتعاون المشترك للدفاع عن البلاد الإسلامية، وحول هذا الأمر يقول أحد الباحثين: "وتبدو براعة السلطان الظاهر بيبرس وبُعد نظره السياسي في أنه حرص دائماً على أن يحيط حروبه بسياج من المعاهدات والاتفاقيات الدولية الخارجية؛ ليضمن تقوية جبهته من ناحية، واكتساب أعوان وحلفاء ضد خصومه من ناحية أخرى"<sup>(١)</sup>، وبيان ذلك على النحو الآتي:

#### أولاً: المعاهدات مع غير المسلمين.

١) المعاهدة مع "الامبراطورية البيزنطية"<sup>(٢)</sup>: فقد سعى السلطان بيبرس إلى محالفة "الامبراطورية البيزنطية"؛ لأنها كانت في ذلك الوقت العدو التقليدي للصليبيين بالشام، ولأنه - وهو بصدد الاستيلاء على "أنطاكية" - كان يدرك أطماع البيزنطيين في تلك المدينة من ناحية، والخلاف العميق بين الأباطرة البيزنطيين وأمراء "أنطاكية" من ناحية أخرى، لذلك أرسل أحد أمرائه وهو الأمير فارس الدين

(١) الظاهر بيبرس، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٥٧).

(٢) الامبراطورية البيزنطية أو الرومانية الشرقية، ويذهب البعض إلى أن الدولة البيزنطية بدأت من سنة (٨٠٠م)، وهي تأتي مقابل الامبراطورية الرومانية في الغرب، وقد تواجدت في أقاليم آسيا الصغرى، وشمال العراق، والشام، وفلسطين، ومصر، وشمال أفريقي، وقد كانت هناك سجلات بينها وبين الدول الإسلامية ما بين حرب وصلاح من أشهر أباطرتها: قسطنطينوس الثاني، ثيودوسيوس الأول، جستين الأول، قسطنطين الثالث، وغيرهم الكثير، وكان دينها الرسمي "المسيحية الأرثوذكسية"، شهدت مراحل كثيرة من الضعف والقوة، انتهت هذه الامبراطورية بمجرد فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة (١٤٥٣م). يراجع: الامبراطورية البيزنطية، نورمان بينز، تعريب: د/ حسين مؤنس، أ/ محمد يوسف زيدان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ط الأولى (١٩٥٠م).

أقوش المسعودي<sup>(١)</sup> - مبعوثاً إلى الامبراطور البيزنطي "ميخائيل الثامن باليولوجس" بهدف المعاهدة على الصلح، وبالفعل أحسن الامبراطور استقبال مبعوث السلطان وأطلعته على جامع "القسطنطينية" الذي كان الامبراطور قد جدده بعد أن خرّبهُ "الصليبيون" في الحملة الصليبية الرابعة<sup>(٢)</sup>.

ولم يكتف الامبراطور بذلك بل أرسل الهدايا إلى السلطان بيبرس، وعندئذ رد عليه السلطان بأحسن منها، كما أرسل إلى جامع "القسطنطينية" الحُصْر الممتازة والقناديل المذهبة والبسط الفاخرة والسجاد والمباخر<sup>(٣)</sup>.

وحول هذا الأمر يقول أحد الباحثين: "والواقع أن كلاً من السلطان بيبرس والامبراطور البيزنطي "ميخائيل باليولوخس" كان حريصاً على التقرب من الآخر، فالسلطان المملوكي بيبرس الذي تمكن بتحالفه مع خان القفجاق بركة<sup>(٤)</sup> من الحد من خطورة قيام حلف مغولي صليبي ضد دولته، كان يخاف نتيجة ذلك أن يقدم "الصليبيون" في ساحل بلاد الشام على استرضاء الامبراطور البيزنطي وعقد تحالف معه ضده؛ لذا كان عليه أن يبادر إلى إجراء اتصالات مع البيزنطيين لمنع احتمال قيام ذلك الحلف الجديد، وفي الوقت نفسه كان الامبراطور البيزنطي يحرص هو الآخر أشد الحرص على مصادقة السلطان الظاهر بيبرس لاشتراكهما معاً في عداوة "الصليبيين" ببلاد الشام، فضلاً عن أن الامبراطور البيزنطي الذي كان يتعرض بين آونة وأخرى لغارات مغول القبيلة الذهبية "القفجاق" كان يرى أن مصادقته للسلطان المملوكي بيبرس حليف "بركه خان" هو السبيل الوحيد لكف "مغول القفجاق" عن مهاجمة بلاده، يدلنا على ذلك إقدام الامبراطور البيزنطي

(١) أحد أمراء دولة المماليك في عهد الظاهر بيبرس. يراجع: السلوك، للمقريزي، (١/ ٥٤٣).

(٢) الحروب الصليبية هي عدة حروب شنتها الدول الأوروبية على الدول الإسلامية لاستخلاص بيت المقدس منهم، ودعت بالصليبية لأن الجنود الأوروبية كانت تتخذ الصليب شعاراً لها وكانت الأعلام الأوروبية تتميز بوجوده على رقعته. يراجع: المماليك في مصر، أحمد زقلمة، (ص ٣٨).

(٣) الظاهر بيبرس، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٥٧، ٥٨). ويراجع: الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، (ص ١١٧). والسلوك، للمقريزي، (١/ ٥٤٣ وما بعدها)، وجهاد المماليك، (ص ١٧٥).

(٤) سنتعرف على هذا التحالف في هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

"ميخائيل باليولوخس" في سنة (٦٦٢هـ) على اعتراض رسل السلطان بيبرس الذين كانوا في طريقهم إلى الملك بركة، وذلك لما لحقه من الإغارة والأذى وسيّر ميخائيل إلى الظاهر بيبرس رسالة يخبره بذلك ويذكره بما بينهما من تحالف على الصفاء والصدقة، فكتب بيبرس إلى بركة يوصيه بكف الأذى عن البيزنطيين، فبادر الامبراطور البيزنطي إلى إطلاق رسل السلطان والإحسان إليهم<sup>(١)</sup>.

ويقول آخر: "وتوطدت العلاقات بين مصر وبيزنطة في عهد الظاهر بيبرس الذي قضت مصلحة بلاده أن يظل على صلة بمغول "القفجاق" في جنوبي روسيا، ولما كان "هولاكو" قد فصل هؤلاء عن "المماليك" باحتلاله العراق وقسمًا كبيرًا من آسيا الصغرى، فقد اتجه بيبرس إلى الامبراطور "ميخائيل الثامن"، وأجرى معه مفاوضات تمخضت عن عقد اتفاقية تُبقي المضائق مفتوحة أمام التجارة المملوكية، مع القفجاق لتتم الصلة بين مصر وجنوبي روسيا عن طريق البحر"<sup>(٢)</sup>.

**٢) التحالف مع حكام جزيرة صقلية:** فلم يكتف السلطان بمحالفة الامبراطورية البيزنطية استعدادًا لما ينوي القيام به ضد "الصليبيين" في الشام فقط، وإنما حرص على الاحتفاظ بسياسة الود والتحالف بين حكام جزيرة صقلية من ناحية ومصر من ناحية أخرى، وهي السياسة التي بدأت منذ أيام "الامبراطور فردريك الثاني"<sup>(٣)</sup> و"السلطان الكامل الأيوبي"، ولذلك أرسل السلطان بيبرس سفارة تحمل الهدايا إلى "مانفرد" ملك صقلية سنة (١٢٦١م)، فرد عليه "مانفرد" بالمثل مما قوى أواصر الصداقة بين الطرفين، وقد قويت الرابطة بين بيبرس وجزيرة صقلية في عهد "شارل الأنجوى" - خليفة "مانفرد" - مما حقق للسلطان الظاهر بيبرس قدرًا كبيرًا

(١) جهاد المماليك، (ص ١٨٩، ١٩٠). ويراجع: تاريخ المماليك في مصر والشام، (ص ١٠٠)، (١٤٦ وما بعدها).

(٢) تاريخ المماليك، (ص ١٤٦).

(٣) امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة، ولد في (٢٦) ديسمبر سنة (١١٩٤م)، وتوفي (١٢٥٩م). ، ملك صقلية من سنة (١١٩٨م) حتى عام (١٢٥٠م)، قاد الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨م - ١٢٢٩م)، وتوج نفسه ملكًا على القدس عام (١٢٢٩م). ويكيبيديا.

من المكانة فضلاً عن إحكام حصار "الصليبيين" بالشام<sup>(١)</sup>.

٣) **عقد الصلح مع بوهيموند السادس**<sup>(٢)</sup>: فعندما شرع الظاهر بيبرس في الاستعداد لمهاجمة طرابلس الشام، بلغه أن المير ادوارد الانجليزي - الذي صار فيما بعد ادوارد ملك إنجلترا - وصل إلى "عكا" على رأس بضع مئات من الفرسان بقصد الحج إلى بيت المقدس، ويبدو أن وصول ذلك الأمير أثار مخاوف بيبرس، إذ خشي أن تكون تلك الحركة مقدمة لحملة صليبية كبيرة في طريقها إلى الشام؛ لذلك قبل بيبرس العرض الذي تقدم به بوهيموند السادس صاحب "طرابلس" وتم عقد الصلح بين الطرفين على أن يحتفظ السلطان بيبرس بما فتحه من بلاد حديثاً، وأن تكون الهدنة لمدة عشر سنين<sup>(٣)</sup>.

٤) **المعاهدة مع الأستبار**<sup>(٤)</sup>: ومن أشهر المعاهدات التي عقدها السلطان بيبرس مع غير المسلمين، تلك المعاهدة التي عقدها مع الأستبار بـ "حصن الأكراد"<sup>(٥)</sup> و"المرقب"<sup>(٦)</sup> في شهر رمضان سنة "خمس وستين وستمئة"، وقد ذكرها العلامة القلقشندي<sup>(٧)</sup> بكاملها في أكثر من صفحة في كتابه الموسوم بصبح الأعشى<sup>(٨)</sup>.

(١) الظاهر بيبرس، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٨٥). ويراجع: تاريخ المماليك، (ص ١٤٨).  
(٢) بوهيموند السادس (١٢٥٢ - ١٢٧٥ م) أمير إمارة أنطاكية، وكونت طرابلس، ابن بوهيموند الخامس، خلف والده في حكم أنطاكية وطرابلس بعد وفاة أبيه سنة (١٢٥٢ م) بعدما انتزعها من والدته بمساعدة الملك لويس التاسع ويكيبديا.

(٣) الظاهر بيبرس، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٧٩). ويراجع: تاريخ المماليك، (ص ١٢٧، ١٢٨).  
(٤) الأستبارية: طائفة من الفرسان الصليبية نشأت منذ فجر الحروب الصليبية، وبدأت أول الأمر على هيئة جمعية هدفها العناية بمرضى الصليبيين، وإيواء الحجاج ورعايتهم وطبقت مبادئ الديرية البندكتية في فلسطين ولم تلبث أن تخلت عن تبعيتها للبندكتية وانتمت للبابوية مباشرة، ثم تطورت واكتسبت صفة حربية وارتدى أصحابها زي الرهبان، وأخذوا يقاتلون من أعلى ظهور الجبل كالفرسان تماماً، ونذروا أنفسهم لقتال المسلمين منذ سنة (٥٣١هـ = ١١٣٧ م)، وأسهمت مع طائفة الداوية في حماية كيان الصليبيين في الشام طوال أكثر من قرن من الزمان. جهاد المماليك، (ص ٤٨).

(٥) هو حصن منبع حصين على الجبل الذي يقابل حصص من جهة الغرب، وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان، وهو بين بعلبك وحمص، وكان بعض أمراء الشام قد بنى في موضعه برجاً وجعل فيه قوماً من الأكراد طليعة بينه وبين الفرنج، وأجرى لهم أرزاقاً فتديروها بأهاليهم، ثم خافوا على أنفسهم في غارة، فجعلوا يحصنونه إلى أن صارت قلعة حصينة منعت الفرنج عن كثير من غاراتهم. معجم البلدان، (٢/ ٢٦٤).  
(٦) بالفتح ثم السكون، والقاف، وباء موحدة، وهو اسم الموضع الذي يرقب فيه: بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بلنباس. معجم البلدان، (٥/ ١٠٨).

(٧) القلقشندي (٧٥٦ - ٨٢١هـ = ١٣٥٥ - ١٤١٨ م). أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري: المؤرخ الأديب البحاتة، ولد في قلقشنده (من قرى القليوبية، بقرب القاهرة، سماها ياقوت قرقشنده) ونشأ وناب في الحكم وتوفي في القاهرة، وهو من دار علم، وفي أبنائه وأجداده علماء أجلاء. أفضل تصانيفه (صبح الأعشى في قوانين الإنشاء). الأعلام، (١/ ١٧٧).

(٨) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (٤/ ٣٤ وما بعدها)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥) صلح القصير<sup>(١)</sup>: كان القصير للبطرك الكبير خاصة، وزعموا أن بأيديهم خط عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فلما نزل السلطان في هذه الجهات بذلوا نصف البلاد للسلطان، فكتبت لهم هدنة، وانضاف إلى مملكة الإسلام نصف بلاد القصير<sup>(٢)</sup>.

كانت هذه بعض النماذج للمعاهدات التي عقدها السلطان بيبرس مع غير المسلمين، وقد ترتب على هذه المعاهدات أمور:

١) أن تلك المعاهدات التي أبرمت والسفارات التي تبودلت بين السلطان بيبرس وبين ملوك وأباطرة الدول المحيطة بدولته من الشرق والغرب، جنبت دولة المماليك المسلمين خطراً كان يتهدها من جراء تلك المحاولات التي بذلت لعقد حلف مغولي صليبي ضدها.

٢) أضحى السلطان بيبرس في وضع طيب بعد أن استطاع تجميد النشاط المغولي ضد دولته في الشرق بإشغالهم في حروب داخلية.

٣) حرمان "الصليبيين" في بلاد الشام من أية مساعدة خارجية.

٤) تمكن بفضل ذلك العمل من توزيع نشاطه على الجبهتين الصليبية والمغولية معاً<sup>(٣)</sup>.

### منهج السلطان بيبرس في عقد المعاهدات:

الأول: رفض عقد المعاهدات مع "المغول": لأنه كان يعقدها مع من يظن بهم خيراً ويحفظون العهد والذمة، أما من هم غير ذلك فكان يرفض أن يقيم معهم عهداً أو مهادنة؛ لذا فقد رفض عقد اتفاقيات الصلح مع من تلوثت أيديهم بدماء المسلمين من "المغول"، ويذكر المؤرخون في هذا الأمر أنه بعد أن ساءت الأحوال بـ "أبغا"

(١) قلعة جنوبي أنطاكية، وكانت لهيئة الفرسان الداوية. يراجع: نهاية الأرب، (هامش ٣٠ / ٢٠٤).

(٢) نهاية الأرب، (٣٠ / ٢٠٤).

(٣) جهاد المماليك، (ص ١٩١، ١٩٢).

ملك "المغول" ونشبت الصراعات العديدة ووقعت الهزائم المتكررة عليه وعلى جنوده، أرسل الرسل سنة (١٢٦٥م) إلى السلطان بيبرس تحمل الهدايا وتطلب الصلح، ولكن بيبرس شأنه شأن أي حاكم مسلم في ذلك الوقت كان لا يرتضي لنفسه أن يضع يده في يد "المغول"، وهم الذين مزقوا العالم الإسلامي وقتلوا خليفة المسلمين وحالفوا أعداء الإسلام<sup>(١)</sup>.

**الثاني: نقض بعض المعاهدات:** فقد كان السلطان بيبرس "يلجأ أحياناً إلى توقيع المعاهدات وعقد الهدنات مع "الصليبيين" إذا أحس بحاجته إلى ذلك، ولكنه لم يجد غضاضة في أي وقت في خرق تلك المعاهدات ونقض تلك الهدنات قبل انقضاء أجلها التقليدي وهو عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام"<sup>(٢)</sup>.

ومن الهدنات والمعاهدات التي نقضها بيبرس معاهدته مع "الصليبيين" في "صفد"<sup>(٣)</sup> وكانوا من "فرسان الداوية"<sup>(٤)</sup>، وذلك بعد أن التقى الجيشان واشتدت الحرب القائمة بينهما حتى ضعف "الصليبيون" آخر الأمر عن المقاومة؛ فسقطت قلعة "صفد" بعد حصار دام ثلاثة أسابيع على الرغم من أنها كانت محصنة تحصيناً قوياً، واضطر رئيس الداوية إلى التسليم على أن يؤمنهم بيبرس على حياتهم وأن يرحلوا إلى عكا سالمين، فأمنهم على أن تخرج الحامية من القلعة بغير سلاح ولا لأمة حرب وألا ينقلوا ذخائر القلعة.

إلا أن بيبرس قد وجد عندما خرجوا من القلعة أنهم حملوا معهم أسلحتهم

(١) الظاهر بيبرس، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٩٦).

(٢) السابق، (ص ٥٩).

(٣) صفد: بالتحريك، والصفد: العطاء، وكذلك الوثائق، وصفد: مدينة في جبال عاملية المطلة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان. معجم البلدان، (٣/ ٤١٢).

(٤) هي طائفة فرسان المعبد، وتختلف عن الاستبارية في كونها نشأت أصلاً على أساس حربي منذ سنة (٥١٢هـ)، واتخذت هذه المنظمة العسكرية من ساحة المسجد الأقصى مقراً لها، وتعهد أتباعها بحماية الطريق بين يافا وبيت المقدس، ثم أسهم فرسان الداوية في جميع الأعمال العدائية التي قام بها الصليبيون في بلاد الشام وغدت الداوية تابعة للبابوية مباشرة شأنها في ذلك شأن الاستبارية، وشكلت هاتان الطائفتان أقوى دعامتين للوجود الصليبي في بلاد الشام. الحركة الصليبية، د/ سعيد عاشور، (١/ ٤٨٧، ٤٨٧). (جهاد المماليك ضد المغول، (ص ٣٨).

وأمتعتهم، كما وجد معهم بعض الأسرى من المسلمين أخرجوهم معهم على أنهم نصارى، وعلى هذا فقد رأى بيبرس أن الفرنجة لم يلبثوا أن نقضوا الأمان ونكثوا العهد، ومن ثم أخذ ما معهم ثم ضرب أعناقهم على تل بالقرب من "صفد"<sup>(١)</sup>.

وقد ذهب المستشرق "ميور" إلى أن ما فعله السلطان بيبرس من نقضه لبعض المعاهدات يعتبر غدراً غير مبرر، فقال: "إن هذا الجرم الفظيع عزاه فريق إلى أن الأسرى حين خروجهم حملوا أسلحتهم وأمتعتهم، كما أن فريقاً آخر يرى أنه يرجع إلى أن بعض المسلمين وجدوا مسجونين بالقلعة، على أن هذه الأسباب لا تمحو عن ذلك الفاتح تلك النقطة السوداء التي لصقت بإنسانيته بل بإيمانه"<sup>(٢)</sup>.

"والواقع أن ما فعله السلطان بيبرس لا يخرج عن كونه جزءاً طبيعياً لمن حل بهم ذلك العمل، إذ لم يتعد بيبرس حدود ما أمتهم عليه وشرطوه على أنفسهم، وهذا العمل كان يعتبر غدراً لو أنه قتلهم بعد التأمين في وقت لم ينقضوا فيه العهد، أما وقد نقضوا العهد فليس إذن من الغدر أو الخيانة في شيء"<sup>(٣)</sup>.

وهناك شهادة لجيمس واترستون حول مدى تمسك السلطان بيبرس بالمعاهدات قدر استطاعته، فيقول: "ولذا فإن بيبرس شرع في تحرير آخر المدن الصليبية المتبقية جنوبي عكا، وكانت هي "يافا" والتي تقع على الساحل ويمكنها أن تكون نقطة وصول للقوات الصليبية، وظهر بيبرس أمام أسوارها يوم (٧) مارس، وكان قادراً من الناحية القانونية أن يقوم بخرق اتفاقية السلام المعقودة مع المدينة لأن المدينة قامت ببناء منجنيقات بالانتهاك للاتفاقية الموقعة بينهما، وقد قتلت واحدة من هذه المنجنيقات ثلاثة رجال كانوا يقفون بالقرب من بيبرس، وسقطت المدينة في يد بيبرس بعد اثنتي عشرة ساعة من القتال المتواصل"<sup>(٤)</sup>.

(١) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، (ص ٨٢). ويراجع: تاريخ المماليك، (ص ١٢٣).

(٢) يراجع: المماليك في مصر، أحمد زقمة، (ص ٤٣).

(٣) جهاد المماليك، (ص ٢١٢).

(٤) فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترستون، (ص ١٧٧).

ويقول في موضع آخر: "الآن وقد أصبحت "البيرة" آمنة، فقد استدار بيبرس تجاه "الأناضول" مرة أخرى، وهوجمت قلعة "كاينوك الأرمينية" في يوليو (١٢٧٣م) تحت ذريعة أن رجالها يهاجمون التجار المسلمين، وكان هذا صحيحًا بالتأكيد حتى ولو كان الأرمن يرتدون غطاء رأس مغولي في غاراتهم في محاولة منهم لإخفاء هويتهم"<sup>(١)</sup>.

ومن الشواهد التي تؤكد أن السلطان بيبرس كان يلتزم بالعهد قدر استطاعته ما ذكره المؤرخ شهاب الدين النويري رحمه الله: من أن السلطان قد قرر هدنة مع الفرنج سنة "تسع وخمسمائة وستين"، وأن الفرنج لم يفوا بما تقرر من إطلاق الأسرى، وشرعوا يحيدون عن الحق، فأخذ السلطان يكاذبهم ويطلب منهم الالتزام بشروط الهدنة وما تقرر فيها، فلم يستجيبوا له، فخرج بعساكره من أجل تأديبهم، فلما علموا مقدمه قالوا له: نحن لا ننفذ الهدنة ونطلب مراحم السلطان في استدامتها، ونفك الأسرى، ونستأنف الخدمة، فقال السلطان: كان هذا قبل خروجي في هذا الشتاء ووصول هذه العساكر"<sup>(٢)</sup>.

"ورفض السلطان بيبرس تضرعهم إليه باستمرار الهدنة لعلمه - على ما يبدو - أنهم إنما قالوا ذلك عندما شعروا بمسيره إليهم، وأنه في حالة ابتعاده عنهم يستأنفون تتصلهم وخذاعهم، فوجد في مخالفتهم تلك تبريرًا كاملًا لمهاجمتهم"<sup>(٣)</sup>.

وأما عن المعاهدة التي قد عقدها السلطان الظاهر بيبرس مع "الصليبيين" بقلعة "صفد" سنة (٦٦٤هـ-)، فقد اشترط عليهم ألا يخرجوا منها بسلاح أو نقود، ولا يتلفون شيئاً من مرافقها بنار أو هدم، وأن يقوم المسلمون بتفتيشهم عند خروجهم، فإن وجد مع أحد منهم شيئاً من ذلك انتقض العهد.

على أن "الصليبيين" لم يلبثوا أن أخلوا بشروط السلطان بيبرس ونكثوا العهد،

(١) فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (صد٢٠٣).

(٢) نهاية الأرب، (٣٠/ ١٦١ وما بعدها باختصار وتصرف). ويراجع: جهاد المماليك، (صد١٩٩).

(٣) جهاد المماليك، (صد١٩٩).

وقد وجد السلطان أنهم عندما خرجوا من القلعة حملوا معهم أسلحتهم وأمتعتهم، كما كشف معهم بعض الأسرى المسلمين أخرجوهم متظاهرين بأنهم من النصارى فأخذ بيبرس ما معهم، وأنبهم على نقض العهد وأدبهم على ذلك<sup>(١)</sup>.

### الثالث: استثمار المعاهدات في القضاء على الممالك الصليبية.

يقول أحد الباحثين: "أمام تلك الضربات المتتالية التي وجهها المسلمون للصليبيين في "عكا" سارعت معظم القوى الصليبية بإرسال رسلها إلى السلطان بيبرس، تعتذر وتعلن التوبة والندم، وتطلب الصلح معه، وهنا استغل بيبرس ذلك الحال، واتبع سياسة مأكرة وناجحة إزاء تلك القوى، فلم يرفض طلبها جميعاً في الصلح حتى لا تتكفل ضده، وفي الوقت نفسه لم يجبهها جميعاً إلى ذلك وإنما اختار أن يعقد الصلح من بعضها دون البعض الآخر حتى يتمكن من القضاء عليها واحدة بعد الأخرى"<sup>(٢)</sup>.

ويقول جيمس واترستون: "وكانت قائمة بيبرس للتدمير ضد "الصليبيين" تعطي انطباعاً بعداء متواصل، ولكن الصورة لا يمكن أن تكتمل بغير تقدير استخدام السلطان لمعاهدات السلام من أجل توسيع رقعة الانقسامات السياسية التي كانت تجري بين الممالك الصليبية، ففي عام (١٢٦٧م) عقد بيبرس معاهدة مع "فرسان الاسبتارية"، وفي عام (١٢٦٨م) كان يقوم بشن حملات على فرسان الهيكل وأنطاكية.

وجعلت المعاهدة التي قام السلطان بعقدها مع إيزابيل دي إيبيلين - حاكمة بيروت - في عام (١٢٦٩م) من المدينة ومن السيدة نفسها محمية للسلطان، كما قامت بتحديد القيمة الاستراتيجية للمدينة بالنسبة للفرنجة في واقع الأمر، وكانت المادة الثانية عشرة من المعاهدات تنص على ألا تسمح السيدة لأي من الفرنجة، أياً

(١) السابق، (ص ٢٠٩، ٢١٠). ويراجع: تاريخ المماليك في مصر والشام، (ص ١٢٣).

(٢) جهاد المماليك، (ص ٢٢٠).

كانوا بشن عمليات ضد أراضي السلطان من بيروت والأراضي التابعة لها، وتمتعت عن ذلك وتقوم بصد أي شخص يحاول العبور ولديه نوايا شريرة<sup>(١)</sup>.

### موقف الدعوة الإسلامية من عقد المعاهدات ونقضها مع غير المسلمين:

لقد أجازت الدعوة الإسلامية للمسلمين عقد المعاهدات مع غيرهم؛ طالما تترتب على هذه المعاهدات تحقيق مصلحة المسلمين، وبيان محاسن الإسلام، وحقن الدماء الإنسانية، ونبذ العنف والحرب.

وهناك نصوص قرآنية ونبوية تؤكد هذا الأمر، ومنها قوله تعالى: (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ). [التوبة: ١]، وقوله تعالى: (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ). [التوبة: ٧]، وقوله تعالى: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). [الأنفال: ٦١].

وهذه الآية "انتقال" من بيان أحوال مُعَامَلَةِ الْعَدُوِّ فِي الْحَرْبِ: مِنْ وَقَائِهِمْ بِالْعَهْدِ، وَخِيَانَتِهِمْ، وَكَيْفَ يَحِلُّ الْمُسْلِمُونَ الْعَهْدَ مَعَهُمْ إِنْ خَافُوا خِيَانَتَهُمْ، وَمُعَامَلَتَهُمْ إِذَا ظَفَرُوا بِالْخَائِنِينَ، وَالْأَمْرُ بِالِاسْتِعْدَادِ لَهُمْ إِلَى بَيَانِ أَحْكَامِ السَّلَامِ إِنْ طَلَبُوا السَّلَامَ وَالْمُهَادَنَةَ، وَكَفُّوا عَنِ حَالَةِ الْحَرْبِ. فَأَمَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ لَا يَأْنِفُوا مِنَ السَّلَامِ وَأَنْ يُوَافِقُوا مَنْ سَأَلَهُ مِنْهُمْ<sup>(٢)</sup>.

وقد عقد النبي ﷺ المعاهدات مع المشركين، وأشهرها عقد "صلح الحديبية"<sup>(٣)</sup>، وما كتبه النبي ﷺ مع اليهود في المدينة، والذي وادع فيه يهود وعاهدتهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم<sup>(٤)</sup>.

(١) فرسان الإسلام وحروب المماليك، (ص ١٩٧، ١٩٨).

(٢) التحرير والتطوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، (١٠/٥٨)، الدار التونسية للنشر - تونس - سنة النشر: (١٩٨٤هـ).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ)، (٢/٣١٦ وما بعدها)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط الثانية، (١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م).

(٤) سيرة ابن هشام، (١/٥٠١).

وأما بالنسبة لإمكانية نقض العهد الذي قد يعقده القائد المسلم مع غير المسلمين، فهو غير جائز طالما التزموا بالعهد وشروطه، ومما ورد في ذلك عن سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ، يَقُولُ: كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ أَهْلِ الرُّومِ عَهْدٌ، وَكَانَ يَسِيرُ فِي بِلَادِهِمْ، حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَهْدُ أَغَارَ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رَجُلٌ عَلَى دَابَّةٍ أَوْ عَلَى فَرَسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، وَقَاءٌ لَا غَدْرُ، وَإِذَا هُوَ عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ، فَسَأَلَهُ مُعَاوِيَةُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحِلُّنَّ عَهْدًا، وَلَا يَشُدُّنَّهُ حَتَّى يَمْضِيَ أَمْدُهُ أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ، قَالَ: فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ بِالنَّاسِ" (١).

يقول الإمام القرطبي - رحمه الله - : "وإِنَّمَا كَانَ الْغَدْرُ فِي حَقِّ الْإِمَامِ أَعْظَمَ وَأَفْحَشَ مِنْهُ فِي غَيْرِهِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَفْسَدَةِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا غَدَرُوا وَعَلِمَ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَلَمْ يَنْبِذُوا بِالْعَهْدِ لَمْ يَأْمَنْهُمْ الْعَدُوُّ عَلَى عَهْدٍ وَلَا صَلْحٍ، فَتَشْتَدُّ شَوْكَتُهُ وَيَعْظُمُ ضَرَرُهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مُنْفَرًا عَنِ الدُّخُولِ فِي الدِّينِ، وَمَوْجِبًا لِدَمِّ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ. فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْعَدُوِّ عَهْدٌ فَيَنْبَغِي أَنْ يُتَحِيلَ عَلَيْهِ بِكُلِّ حِيلَةٍ، وَتَدَارَ عَلَيْهِ كُلُّ خَدِيعَةٍ. وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُهُ ﷺ : (الْحَرْبُ خُدْعَةٌ)" (٢).

إلا أنه يجوز للإمام أن ينقض العهد مع غير المسلمين في حالتين، الأولى: أن ينقضوا هم العهد مثل ما قام به يهود بني قينقاع وغيرهم (٣). الثانية: أن يظن الإمام بهم نقض العهد، ومما جاء في ذلك: قوله تعالى: (وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ). [الأنفال: ٥٨].

"وَالنَّبْذُ: الطَّرْحُ وَالِإِقَاءُ الشَّيْءِ، وَالْمَعْنَى: فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ نَبْذًا وَاصِحًا عَلْنَا مَكْشُوفًا، وَإِنَّمَا رُتِبَ نَبْذُ الْعَهْدِ عَلَى خَوْفِ الْخِيَانَةِ، دُونَ وَقُوعِهَا، لِأَنَّ شُؤْنَ الْمُعَامَلَاتِ

(١) سنن الترمذي، أبواب السير، ب ما جاء في الغدر، رقم (١٥٨٠). وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، (٣٣/٨)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة - ط الثانية، (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).

(٣) يراجع: سيرة ابن هشام، (٢/٤٧ وما بعدها).

السِّيَاسِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ تَجْرِي عَلَى حَسَبِ الظُّنُونِ وَمَخَائِلِ الْأَحْوَالِ وَلَا يُنْتَظَرُ تَحَقُّقُ  
وُقُوعِ الْأَمْرِ الْمَظْنُونِ لِأَنَّهُ إِذَا تَرَيْتِ وُلَاةَ الْأُمُورِ فِي ذَلِكَ يَكُونُونَ قَدْ عَرَضُوا الْأُمَّةَ  
لِلْخَطَرِ، أَوْ لِلتَّوَرُّطِ فِي غَفْلَةٍ وَضِيَاعِ مَصْلَحَةٍ، وَلَا تُدَارُ سِيَاسَةُ الْأُمَّةِ بِمَا يُدَارُ بِهِ  
الْقَضَاءُ فِي الْحُقُوقِ، لِأَنَّ الْحُقُوقَ إِذَا فَاتَتْ كَانَتْ بَلِيَّتِهَا عَلَى وَاحِدٍ، وَأَمَّا تَدَارُكُ  
فَاتِيهَا. وَمَصَالِحُ الْأُمَّةِ إِذَا فَاتَتْ تَمَكَّنَ مِنْهَا عَدُوُّهَا، فَلِذَلِكَ عُلِقَ نَبْذُ الْعَهْدِ بِتَوْقَعِ خِيَانَةِ  
الْمُعَاهِدِينَ مِنَ الْأَعْدَاءِ.

وَجُمْلَةٌ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ تَذْيِيلٌ لِمَا اقْتَضَتْهُ جُمْلَةٌ: وَإِنَّمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ  
خِيَانَةَ الْخِ تَصْرِيحًا وَاسْتِزْلَامًا. وَالْمَعْنَى: لِأَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّهُمْ، لِأَنَّهُمْ مُتَّصِفُونَ بِالْخِيَانَةِ  
فَلَا تَسْتَمِرُّ عَلَى عَهْدِهِمْ فَتَكُونُ مُعَاهِدًا لِمَنْ لَا يُحِبُّهُمُ اللَّهُ وَلِأَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ أَنْ تَكُونَ  
أَنْتَ مِنَ الْخَائِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَالُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا  
يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا)<sup>(١)</sup>.

وإن قيل كيف يجوز نقض العهد مع خوف الخيانة، والخوف ظن لا يقين معه،  
فكيف يسقط يقين العهد مع ظن الخيانة؟

فالجواب من وجهين: أحدهما - أن الخوف قد يأتي بمعنى اليقين، كما قد يأتي  
الرجاء بمعنى العلم، قال الله تعالى: (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا). [نوح: ١٣].  
الثاني - إذا ظهرت آثار الخيانة وثبتت دلائلها، وجب نبذ العهد لئلا يوقع التماذي  
عليه في الهلكة، وجاز إسقاط اليقين هنا ضرورة. وأما إذا علم اليقين فيستغنى عن  
نبذ العهد إليهم، وقد سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة عام الفتح، لما  
اشتهر منهم نقض العهد من غير أن ينبذ إليهم عهدهم<sup>(٢)</sup>.

وبناء على ما سبق فإن سياسة السلطان ببيرس في عقد المعاهدات ونقضها في  
بعض الأحيان سياسة شرعية تتوافق ومبادئ الدعوة الإسلامية.

(١) التحرير والتنوير، (١٠ / ٥٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٨ / ٣٢).

### ثانياً: عقد التحالفات مع القادة المسلمين.

لقد كانت من أهم المبادئ والأسس التي قامت عليها السياسة الخارجية للسلطان بيبرس هي عقد التحالف والتعاون مع القادة المسلمين؛ من أجل دفع الظلم عن المسلمين ونصرتهم وحماية أراضيهم ومقدساتهم، وأشهر هذه التحالفات هي التحالف مع القائد المسلم "بركة خان"<sup>(١)</sup> قائد "مغول القفجاق" المسلمين بهدف صد خطر "مغول فارس" بقيادة "هولاكو" الذين اجتاحتهم العالم الإسلامي وقتلوا خليفة المسلمين.

وحول هذه الأمر يقول أحد الباحثين: "فإذا كان "مغول فارس" بزعامة "هولاكو" وخلفائه هم الذين أنزلوا الضرر ببلاد المسلمين في الشرق الأدنى، فاجتاحوا العراق ودمروا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم"<sup>(٢)</sup>، وأوغلوا في الشام حتى "غزة" و "عين جالوت"<sup>(٣)</sup> في فلسطين، فإن هناك فرعاً آخر من "المغول" هم "مغول القفجاق" أو "القبيلة الذهبية"، الذين كان مركزهم بين بحر قزوين ونهر القولجا، اتخذوا سياسة مغايرة تماماً، ذلك أن "بركة خان" (١٢٥٦ - ١٢٦٧م) اعتنق الإسلام، وغضب لما فعل "هولاكو" ببلاد المسلمين وبخاصة قتله الخليفة العباسي.

وقد ترتب على إسلام بركة خان عدة نتائج:

**الأولى:** ازدياد التقارب بين "مغول القفجاق" والقوى الإسلامية في المشرق خاصة دولة "المماليك" الناشئة.

(١) "السلطان بركة خان بن تولي بن جنكيز خان وهو ابن عم هولاكو، وقد أسلم بركة خان هذا، وكان يجب العلماء والصالحين ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتفريق جنوده، وكان يناصر الملك الظاهر ويعظمه ويكرم رسله إليه، ويطلق لهم شيئاً كثيراً". البداية والنهاية، (١٣ / ٢٨٩). ويراجع: المنهل الصافي، (٣ / ٣٤٩).

(٢) يراجع: السلوك، للمقريزي، (١ / ٤٩٩). الوافي، الصفدي، (١٠ / ٧٣).

(٣) كانت لمغول القفجاق بقيادة بركة خان دور كبير في انتصار المسلمين على المغول في معركة "عين جالوت"، حيث إن هولاكو قبيل المعركة انسحب بعساكر كثيرة من جيشه لمواجهة مغول القفجاق، وترك الأمر للقائد المغولي المسيحي "كيتوبوقا" ليخلفه على بلاد الشام؛ مما أضعف جبهة المغول وأنقص عددهم في المعركة. جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، (ص ١٣٣).

**الثانية:** ازدياد العداء بين "مغول القفجاق" وبقية طوائف "المغول" الوثنيين، خاصة مغول فارس" (١).

**الثالثة:** عدم تحقق مشروع "جنكيز خان" الذي كان يطمح لحكم العالم بأسره (٢).

أما بالنسبة للسلطان بيبرس فقد رأى في إسلام "بركة خان" وقومه فرصة طيبة لاكتساب هذه القوة الإسلامية الجديدة إلى جانبه للوقوف في وجه مطامع مغول فارس ... وهكذا تطلبت ظروف كل من بيبرس وبركة خان نشأة تحالف قوي بين الطرفين ضد العدو المشترك وهو "مغول فارس"، وقد شجعت هذه العلاقة الطيبة بعض رجال القبيلة الذهبية على الهجرة إلى مصر حيث استقبلهم بيبرس بكل مظاهر الحفاوة والتكريم وأقنعهم باعتماد الدين الإسلامي، وأنزلهم في دور بنيت لهم في جهة "اللوق" (٣)، ورفع بعض كبارهم إلى درجة الإمارة ومنحهم الإقطاعات (٤).

وقد ذهب ابن كثير إلى أن سبب الخلاف بين "هولاكو" و"بركة خان" يكمن في أن "هولاكو" لم يُعط "بركة خان" نصيبه من الأموال من البلاد التي قد فتحها، وفي ذلك يقول: "وَفِيهَا - سَنَةٌ سِتِينَ وَسَمَائَةَ - وَقَعَ الْخُلْفُ بَيْنَ هَوْلَاكُو وَبَيْنَ السُّلْطَانِ بَرَكَةَ خَانَ ابْنِ عَمِّهِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ بَرَكَةُ يَطْلُبُ مِنْهُ نَصِيبًا مِمَّا فَتَحَهُ مِنَ الْبِلَادِ وَأَخَذَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَسْرَارِ، عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ مَلُوكِهِمْ، فَقَتَلَ رُسُلَهُ فَاشْتَدَّ غَضَبُ بَرَكَةَ، وَكَاتَبَ الظَّاهِرَ لِيَنْفِقَا عَلَى هَوْلَاكُو" (٥).

ثم ذكر ابن كثير إسلام "بركة خان" فيما بعد وتحالفه مع الظاهر بيبرس، فقال: "وَفِيهَا - سَنَةٌ إِحْدَى وَسِتِينَ وَسَمَائَةَ - قَدِمَتْ رُسُلُ بَرَكَةَ خَانَ إِلَى الظَّاهِرِ يَقُولُ لَهُ:

(١) تاريخ المماليك في مصر والشام، (ص ١١١).

(٢) فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (ص ١٥).

(٣) من أشهر الأماكن والمناطق بمصر قديماً وحديثاً.

(٤) الظاهر بيبرس، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٩٠، ٩١). ويراجع: السلوك، للمقرئزي، (١/ ٥٤٤).

(٥) البداية والنهاية، (١٣/ ٢٧٢).

قَدْ عَلِمْتَ مَحَبَّتِي لِلإِسْلَامِ، وَعَلِمْتَ مَا فَعَلَ "هُولَاكُو" بِالمُسْلِمِينَ، فَارْكَبْ أَنْتَ مِنْ نَاحِيَةٍ حَتَّى آتِيَهُ أَنَا مِنْ نَاحِيَةٍ حَتَّى نَصْطَلِمَهُ أَوْ نُخْرِجَهُ مِنَ البِلَادِ، وَأَعْطِيكَ جَمِيعَ مَا كَانَ بِيَدِهِ مِنَ البِلَادِ، فَاسْتَصَوَّبَ الظَّاهِرُ هَذَا الرَّأْيَ وَشَكَرَهُ وَخَلَعَ عَلَى رُسُلِهِ وَأَكْرَمَهُمْ<sup>(١)</sup>.

وقد ترتب على هذا التحالف القوي بين الظاهر بيبرس وبركة خان خمسة أمور:

**الأول:** عدم قيام تحالف بين القوى المغولية الكبرى في الشرق الأوسط ضد دولة المماليك الناشئة في مصر الشام.

**الثاني:** إيجاد الشاغل القوي الذي يمنع "مغول فارس" من توجيه كل قواهم وجهودهم ضد المسلمين، وبخاصة في بلاد الشام<sup>(٢)</sup>.

**الثالث:** عدم استدامة التحالف بين "الصلبيين" و"مغول فارس"، فقد هلك الصليبيون للمغول ورأوا فيهم القوة الضاربة الكبرى التي تستطيع أن تقضي على الإسلام والمسلمين وتقوي الوجود الصليبي في تلك المناطق، خاصة وأن "المغول" في ذلك الوقت لا زالوا يدينون بالوثنية، الأمر الذي جعل هؤلاء المسيحيين ينظرون إلى هذه القوى على أنها مادة خام يسهل تشكيلها في القلب المسيحي، وزاد من قوة هذا الطمع ظهور تيارات واتجاهات مسيحية بين صفوف "المغول"، من ذلك أن زوجة هولوكو دفوزخان، وأمها سيورقويت كانتا مسيحيتين نسطورتين<sup>(٣)</sup>، فعملتا دائماً على مؤازرة "الصلبيين" ومناصرتهم في كل المناطق التي خضعت للسيطرة المغولية<sup>(٤)</sup>.

(١) البداية والنهاية، (١٣ / ٢٧٦).

(٢) الظاهر بيبرس، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، (ص ٩٢ باختصار وتصرف).

(٣) هي إحدى الفرق المسيحية، أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون. يراجع: الملل والنحل، (٢ / ٢٩).

(٤) جهاد المماليك ضد المغول والصلبيين، (ص ٧٥). يراجع: تاريخ المماليك في مصر والشام، (ص ١١٦).

وبالرغم من تطلع "الصليبيين" إلى هذه القوة الناشئة لتساعدهم في حروبهم ضد المسلمين وتضمن لهم امتلاك الأراضي المقدسة، تمكن بيبرس بفضل انتصاراته عليهم في بلاد الشام وتحالفه مع "بركة خان" سلطان مغول القفجاق من أن يجعل أمد الحلف بينهم وبين ايلخانات فارس قصيراً<sup>(١)</sup>.

**الرابع:** "كما ترتب على اتصال بيبرس ببركة خان، وتفاقم الخلاف بين بركة وهولاكو نتيجة أخرى هي أن ذلك الاضطراب الذي عمّ بلاد "المغول" بسبب ذلك الصراع المرير أدى إلى هروب جماعات مغولية إلى بلاد الشام ومصر، وذلك راجع إلى ما سمعوه عن تسامح المسلمين هناك وحسن معاملتهم للوافدين الذي كان السلطان الظاهر بيبرس قد أصدر تعليماته إلى نوابه بالشام ومصر إلى إكرامهم، وتقديم كل ما يحتاجون إليه وإنزالهم في دور بنيت لهم، ومن ثم تقطع لهم الإقطاعات، وقد عرفوا في التاريخ بالمستأمنين المغول"<sup>(٢)</sup>.

**الخامس:** أن يضمن السلطان بيبرس استمرار تدفق المماليك من بلاد القفجاق ليزيد من عدد جنوده<sup>(٣)</sup>.

وهكذا تظهر لنا براعة السلطان بيبرس السياسية وصواب رأيه في عقد التحالفات مع بركة خان، والتي انتفع بها المسلمون في جميع الممالك الإسلامية في ذلك الوقت.

(١) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، د/محمد جمال الدين سرور، (ص ٧٥).  
 (٢) جهاد المماليك، (ص ١٨٧، ١٨٨ باختصار). ويراجع: فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (ص ١٤١).  
 (٣) تاريخ المماليك في مصر والشام، (ص ١١٢). ويراجع: فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، (ص ١٤٢). نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، (ص ١٢).

## المبحث الرابع

### سياسة تبادل التجارة والسفراء مع الأمم الأخرى

#### أولاً: تبادل التجارات وتأمينها.

لقد انتهج السلطان بيبرس منهجاً دبلوماسياً مع الممالك والأمم الأخرى التي كانت تسالمة وتعاهده، وهذا المنهج تضمن التبادل التجاري بين الطرفين؛ الذي من شأنه أن يحقق الرخاء الاقتصادي للدولة الإسلامية التي كان يحكمها آنذاك، ومن ذلك: المعاهدات التجارية التي عقدها مع جيمس ملك أرجونة<sup>(١)</sup>، وألفنس أمير "إشبيلية"<sup>(٢)</sup>، الذي تبودلت بينه وبين السلطان بيبرس الرسل والهدايا، وكان ألفنس هذا قد أرسل إلى السلطان رسالة يخطب فيها وده، فأجابه بيبرس على ذلك بأن أرسل إليه رسلاً مزودين بالهدايا؛ وكانوا كلما مروا على بلدة من بلاده قابلهم بالحنو والإكرام، واستمروا على ذلك الحال حتى قدموا إليه، فأكرم وفادتهم وقبل الهدية منهم، ثم أعد لهم مركباً أبحروا فيه إلى الإسكندرية فوصلوا إليها في صفر سنة (٦٧٤هـ) <sup>(٣)</sup>.

وحول هذه المعاهدات ونتائجها وحرص القادة الأوروبيين على عقدها مع السلطان بيبرس، يقول جيمس واترستون: "وكان بيبرس في غضون تلك الفترة منهمكاً في بناء القاعدة الاقتصادية التي تعتمد عليها دولته العسكرية، وقام بتأسيس علاقات تجارية وطيدة مع أراجون ومع الحاكم الجديد لصقلية "شارل الأول" كونت أنجو، كما داوم بيبرس الحفاظ على اتصالاته بحاكم صقلية السابق "مانفريد"، وكان

(١) أرجونة: بالفتح ثم السكون، وجيم مضمومة، وواو ساكنة، ونون: بلد من ناحية جيان بالأندلس، منها شعيب بن سهيل بن شعيب الأرجوني، يكنى أبا محمد، عني بالحديث والرأي، ورحل إلى المشرق، فلقى جماعة من أئمة العلماء، وكان من أهل الفهم بالفقه والرأي. معجم البلدان، (١/ ١٤٤).

(٢) كانت قاعدة ملك الأندلس وسريره، وبها كان بنو عبادة، اشتهرت بالكثير من الشجر والزيتون وسائر الفواكه، وإليها ينتسب خلق كثير مثل: عبد الله بن عمر بن الخطاب الإشبيلي. معجم البلدان، (١/ ١٩٥). وهي إحدى المدن الإسبانية اليوم.

(٣) الظاهر بيبرس، د/ محمد جمال الدين سرور، (ص ١١٩).

يقوم بإرسال الزرافة وأسرى "المغول" إليه باستمرار؛ لأنه كان من المناهضين بشدة للبابا، وكما أصبح السلطان يواظب على اتصالاته بشارل الأول أيضاً بعبارات ودية حتى قبل أن يقوم باغتصاب عرش صقلية، فقد كان بيبرس على يقين من أن موانئ صقلية البحرية وموقعها الاستراتيجي في البحر المتوسط يمكن أن يجعل منها موضع قدم محتملاً لأي حملة صليبية قادمة، ولقد كان يرغب في طمأنة حاكمها أيا كان هذا الحاكم، أن ما يفعله في بلاد الشام لن يؤثر بأي حال من الأحوال على الموارد التجارية التي تجنيها الجزيرة من تدفق البضائع من الشرق الأوسط إلى أوروبا، وأفاد بيبرس كثيراً قيام "شارل الأول" كونت "أنجو" باغتصاب للعرش بمساندة بابوية، كما أصابت مطامع شارل الأول الإقليمية في إيطاليا وطموحاته الرامية إلى غزو "القسطنطينية"، وخطه ضد الممالك الصليبية كلها بالرعب كل الجمهوريات البحرية، جنوه، والبندقية، وبيزا، إلى المدى الذي جعلهم جميعاً يتطلعون إلى تقوية مراكزهم في شرق البحر الأبيض المتوسط عن طريق عقد معاهدات تجارية مع السلطان، فهو في النهاية يتحكم في الإسكندرية والتي بدورها تحتكر على وجه التقريب تجارة الهند، ينما موانئ الممالك الصليبية في بلاد الشام تذهب أدراج الرياح"<sup>(١)</sup>.

وبالإضافة إلى ما سبق قد حرص السلطان بيبرس على ضرورة حرية التجارة وتأمين طرقها وحرية تنقل التجار من البلاد الإسلامية إلى البلاد التابعة للإفرنج والعكس في كل المعاهدات التي عقدها مع غير المسلمين، ومما جاء في ذلك من معاهدة السلطان بيبرس مع "الاسبتارية": "وعلى أن التجار والسفّار والمتردّدين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين: الجهة الإسلامية، والجهة الفرنجية والنصرانية، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم، يحميهم السلطان ونوابه، ويتعهدون البلاد الداخلة

(١) فرسان الإسلام وحروب المماليك، (ص ١٨٦، ١٨٧).

في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفت - من جميع المسلمين، ويحميهم بيت "الاسبتار" في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفت- من الفرنج والنصارى كافة.

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أي طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر، وبلاد معاهديه، وبلاد المناصفت، وخاص بيت "الاسبتار" والمناصفت، يكون الساكنون والمترددون في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال، تحمي كل جهة الجهة الأخرى<sup>(١)</sup>.

### موقف الدعوة الإسلامية من التجارة مع غير المسلمين:

لقد أجازت الدعوة الإسلامية عموم التجارة والبيع والشراء بين المسلمين وغيرهم؛ طالما كانت تجارة مشروعة وغير محرمة، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾. [البقرة: ٢٧٥].

ووجه الدلالة أن الله هنا قد أباح جنس البيع والشراء بشكل عام، ولم يفرق بين المسلمين وغيرهم.

ومما جاء في السنة النبوية يؤكد ذلك ما ورد عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «اشترى رسول الله ﷺ من يهودي طعاماً، ورهنه درعه»<sup>(٢)</sup>.

وفي ذلك يقول القاضي عياض<sup>(٣)</sup> رحمه الله: "فيه معاملة اليهود وأهل الذمة وسائر الكفار، وحل ما يؤخذ منهم مع قبض، حيث مكاسبهم ومعاملاتهم، وجواز

(١) يراجع: صبح الأعشى، (٤٠ / ١٤).

(٢) صحيح البخاري، ك الرهن، ب الرهن عند اليهود وغيرهم، رقم (٢٥١٣).

(٣) القاضي عياض (٤٧٦ - ٥٤٤ هـ = ١٠٨٣ - ١١٤٩ م). عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، وتوفي بمراكش مسموماً، من تصانيفه (الشفاء بتعريف حقوق المصطفى)، و (شرح صحيح مسلم). الأعلام، (٩٩ / ٥).

ادخار القوت، وجواز التجارة معهم<sup>(١)</sup>.

وما ورد عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ مُشْعَانٌ طَوِيلٌ بَعْنَمٍ يَسُوقُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " بَيْعًا أَمْ عَطِيَّةً؟ - أَوْ قَالَ: - أَمْ هِبَةً "، قَالَ: لَا، بَلْ بَيْعٌ، فَاشْتَرَى مِنْهُ شَاةً<sup>(٢)</sup>.

وحول هذا الأمر يقول الإمام النووي - رحمه الله -: "وقد أجمع المسلمون على جواز معاملة أهل الذمة وغيرهم من الكفار؛ إذا لم يتحقق تحريم ما معه، لكن لا يجوز للمسلم أن يبيع أهل الحرب سلاحًا وآلة حرب"<sup>(٣)</sup>.

وفي ضوء ما سبق فإن سياسة السلطان بيبرس في التبادل التجاري مع الأمم غير المسلمة المعاهدة كانت سياسة شرعية تتوافق ومبادئ الدعوة الإسلامية.

#### ثانيًا: تبادل السفراء والرسول.

تتجلى قيمة تبادل السفراء والرسول بين الملوك والقادة في كونها تجلب السلام والمسالمة للأمم والشعوب، "فنحن - على سبيل المثال - عندما نجد أمثال هذه الإشارات السريعة لمعاهدة من المعاهدات التي عقدت بين المسلمين و"الصليبيين"، علينا أن ندرك أن كل واحدة منها إنما كانت مرحلة ختامية أو تتويجًا لجهود وأعمال دبلوماسية جادة، قام بها سفراء اشتركوا في مفاوضات، وحملوا أثناء اجرائها ما حملوه من مراسلات ومكاتبات ليمددوا لعقد هذه المعاهدة"<sup>(٤)</sup>.

وقد عرف المسلمون في نظام المبعوثين الدبلوماسيين مصطلحي الرسول والسفير، وكلمة الرسول مشتقة من الإرسال والإطلاق والتوجيه، ويتضمن إيفاد شخصي معتمد للقيام بمهمة معينة.

(١) شَرَحُ صَاحِبِ مُسْلِمٍ لِلْقَاضِي عِيَاضِ الْمُسَمِّي إِكْمَالُ الْمُعْلَمِ بِقَوَائِدِ مُسْلِمٍ، عِيَاضُ بْنُ مُوسَى بْنِ عِيَاضِ بْنِ عَمْرٍو الْيَحْيَايِيُّ السَّبِيئِيُّ، أَبُو الْفَضْلِ (المتوفى: ٥٤٤هـ)، (٣٠٣/٥)، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط الأولى، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

(٢) صحيح البخاري، ك البيوع، ب الشراء والبيع من المشركين وأهل الحرب، رقم (٢٢١٦).

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، (٤٠/١١)، دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة: الثانية، (١٣٩٢هـ).

(٤) الدبلوماسية الإسلامية، (ص ٢٥، ٢٦).

فالرسول في السلك الدبلوماسي هو من يرسل بين حاكمين لدولتين أو إمارتين في أمور خاصة<sup>(١)</sup>.

"وكانت المهام التي يضطلع بها السفراء والرسل في غالبيتها على قدر كبير من المسؤولية، وكانوا يبعثون إنجاز مهام تتفاوت بتفاوت ظروف الحكام والدول والإمارات التي يمثلونها، ومنها: التفاوض من أجل إنهاء القتال وعقد صلح، أو طلاق سراح من وقعوا في الأسر، أو تسوية خلافات دولتين أو رعاية المصالح المختلفة ومنها: المصالح الاقتصادية وخاصة تنشيط التجارة وتأمينها، أو التفاوض من أجل عقد حلف عسكري ضد عدو مشترك وغير ذلك"<sup>(٢)</sup>

ولم يكن السلطان بيبرس بعيداً عن هذه السياسة والدبلوماسية، فقد نقلت الروايات التاريخية أنه كان يعتمد مبدأ الحوار وإرسال الرسل في التفاهم والتعارف على ملوك وأمراء الدول والشعوب والأخرى، وقد ترتبت على هذه السياسة منافع كثيرة تحققت للإسلام والمسلمين في عصره، ومن أمثلتها ما يلي:

(١) **الحوار والتفاهم مع منكوتر بن طوغان بن باطوخان ابن دوشى خان بن جنكزخان، وهو الخامس من ملوكهم بهذه المملكة، فقد ملك هذه المملكة وجلس على كرسي الملك بصراي، وصار إليه ملك بلاد الشام، والترك، والقفجاق، وباب الحديد وما يليه؛ وذلك في سنة "خمس وستين وستمئة".**

ولما ملك كاتبه السلطان بيبرس بالتهنئة والتعزية بعمه، وأغراه بأبغا بن "هولاكو" وحرضه عليه كما كان قد فعل لما كاتب بركة، وذلك في سنة "ست وستين وستمئة"<sup>(٣)</sup>.

(٢) **المهادنة والصلح مع صاحب "سيس" (هيثوم الأول)، وذلك أن السلطان**

(١) السابق، (ص ١١٨).

(٢) الدبلوماسية الإسلامية، (ص ١١٩، ١٢٠).

(٣) نهاية الأرب، (٢٧/٣٦٢).

بيبرس قد جهز العساكر إلى "سيس"، فهزموا القوات الأرمينية، وأسروا ليفون بن هيتوم ولد صاحب "سيس"، فترددت الرسل منه إلى السلطان يعرض عليه كل ما تقرر عليه من مال وقلاع، فاقترح السلطان عليه أموراً، منها: أن يحضر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر<sup>(١)</sup> من بلاد "المغول"، وأن يرد القلاع التي أخذها من المملكة الحلبية، فسأل مهلة سنة، وكشف خبره وأجيب إلى إطلاقه، ثم ورد كتاب صاحب "سيس" يذكر أنه حصله، وورد كتاب الأمير شمس الدين المذكور بعلائم وأماير، فتوقف صاحب "سيس" في الإجابة إلى رد بعض القلاع، فرد السلطان رسله وكتب إليه: «إنك إذا كنت قسوت على ولدك وولى عهدك، أنا أقسو على صديق ما بينه وبينى نسب، ويكون الرجوع منك لا منى، ونحن خلف كتابنا، ومهما شئت افعل بسنقر الأشقر»، فلما وصل إليه هذا الكتاب والسلطان إذ ذاك على "أنطاكية" خاف وبذل ما رسم به السلطان، وتقرر الصلح على تسليم بعض القلاع؛ وجميع ما كان أخذه من بلاد الإسلام، وردها بحواصلها كما تسلمها ... وكتبت الهدنة بذلك في شهر رمضان بأنطاكية<sup>(٢)</sup>.

**٣) الصلح مع ملوك الفرنج:** فتذكر الروايات التاريخية أنه لما توجه السلطان إلى الشام سير سيرجوان ديكين، كند يافا، ببذل الطاعة، ولما وصل السلطان إلى "العوجا" سأل الأمان للحضور إلى "الدهلين"، فتوجه الأتابك<sup>(٣)</sup> إليه وأحضره إلى السلطان، فأكرمه وكتب له منشوراً ببلاده ورده إلى بلده، قال: ثم وردت رسل

(١) سنقر الأشقر الأمير الكبير الملك الكامل شمس الدين الصالحى كان من أعيان البحرية، وكان مصافيا للملك الظاهر وهما من جملة الأجناد وكان نظير الظاهر أيام المعز، وعمل نيابة دمشق سنة ثمان وسبعين وتسطن بها في آخر السنة، كانت له جهود كبيرة في قتال المغول، توفي سنة (٦٩١هـ). الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، (٢٩٧/١٥)، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت - (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).

(٢) نهاية الأرب، (٩٨/٣٠، ٩٩). ويراجع: تاريخ المماليك في مصر والشام، (ص ١٣٥).

(٣) أتابك: (تركية): الوصي على الأمير، ومدبر المملكة، وقد أصبح لقباً يلقب به كبار الأمراء فيقال: أتابك العساكر كبير أمراء العساكر. تكلمة المعاجم العربية، رينهارت بيتر أن نوزي (المتوفى: ١٣٠٠هـ)، (١/٨٠)، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط الأولى، من (١٩٧٩ - ٢٠٠٠م).

ملوك الفرنج يهنون السلطان بالسلامة ومعهم الإقامات الكثيرة، فلما وصل السلطان إلى دمشق حضر رسول من عكا يسأل أماناً للرسل المتوجهين من سائر البيوت، فكتب إلى متولي "بانياس" بتمكينهم، فحضر أكابر الفرنج والتمسوا الصلح، فتوقف السلطان واشترط شروطاً كثيرة فتوقفوا، فأهانهم وزجرهم، وكان العسكر قد توجه للإغارة على بلاد الفرنج من جهة بعلبك، فسألوا في رجوعه وتقرير الصلح على ما كان الأمر عليه إلى آخر الأيام الناصرية وإطلاق الأسرى، من حين انفصال الأيام المذكورة إلى وقت هذه الهدنة، وتوجهت الرسل معهم لأخذ العهود عليهم، وكذلك تقرر الهدنة لصاحب يافا ومتملك بيروت على حكم الأيام الناصرية، وأمنت السبل وكثرت الأجلاب، وشرع السلطان في جمع الأسارى وسيرهم إلى مدينة "نابلس" حفظاً للعهود، والفرنج يكاسرون في أمر الأسارى، فلما طال ذلك رسم السلطان بنقل الأسارى إلى دمشق واستعمالهم في العمائر وبقي الحال موقوفاً<sup>(١)</sup>.

٤) تبادل الهدايا والعلاقات الودية مع صاحب إشبيلية: فقد كان "الفنش" صاحب إشبيلية قد سير رسولاً إلى السلطان، وعلى يده هدية سنوية ورسالة، مضمونها: استدعاء مودة السلطان، فسير السلطان إليه رسلاً، وعلى أيديهم هدية سنوية وعقاقير، فتوجهوا من القاهرة في العشر الآخر من شوال وتوجهوا إلى الإسكندرية، وساروا حتى وصلوا إلى "مرعش"<sup>(٢)</sup>، وهي من جملة مملكة الفنش، فأعلم بوصولهم فاستدعاهم، فتوجهوا إليه، فكانوا كلما مروا ببلد خرج إليهم أهل البلد وتلقوهم بالأفراح، إلى أن وصلوا إلى بنطورية، فخرج جميع من بها من الخيالة والرجالة والتقوهم بظاهرها، ثم استدعاهم الملك بعد ثلاث وأكرمهم غاية الإكرام، واستحضرهم في اليوم الثاني وأحضروا الهدية، فاستبشر وطابت نفسه

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، (٣٠/٣٢ وما بعدها).

(٢) مرعش: بالفتح ثم السكون، والعين مهملة مفتوحة، وشين معجمة: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم. معجم البلدان، (١٠٧/٥).

وقبلها، ثم جهز لهم مركبا ببرشلونة فتوجهوا في البر إليها، ثم ركبوا منها في المركب في آخر ذي الحجة، فوصلوا إلى الإسكندرية في صفر سنة خمس وسبعين وستمئة<sup>(١)</sup>.

٥) **تعزيز التواصل الديني والثقافي:** ومن بين النماذج التي تؤكد ذلك أن السلطان كان قد أرسل الأمير فارس الدين أفض المسعودي رسولاً إلى الأشكري<sup>(٢)</sup>، وكان الأشكري قد سير رسولاً إلى السلطان يلتمس بطركاً للنصارى الملكيين، فعين لذلك الرشيد الكحال، وسيّر إليه صحبة الأمير فارس الدين المذكور، فأكرمه الأشكري وأكرم من صحبه من الأساقفة<sup>(٣)</sup>.

٦) **توطيد العلاقات المصرية الحبشية.** فيشهد الواقع التاريخي أن العلاقات المصرية الحبشية كانت وما زالت قوية وضرورية ومهمة؛ وذلك لمسيب حاجة البلدين لها، ومن أهم الروابط الجذرية والعميقة التي توطد العلاقة بين البلدين هي الروابط الدينية والعقدية، وبالأخص الروابط الكنسية؛ حيث إن الكنيسة في بلاد الحبشة تتبع "الكنيسة الأرثوذكسية" في الإسكندرية، وقد جرت عادة تعيين "مطران" الكنيسة الحبشية بقرار من "بطريرك" الكنيسة بالإسكندرية.

وهذا الأمر يعود "إلى قصة نفر من النصارى الذين وصلوا أرض الحبشة بعد ارتطام سفينتهم بأحد الشُعب، فغرقت، ثم توجه أحدهم إلى الإسكندرية، وروى قصته "البطريك" الإسكندرية، الذي عينه "مطراناً" على كنيسة الحبشة، وبهذا ظلت الكنيسة الحبشية مرتبطة بكنيسة مصر؛ حيث يقوم "البطريك" بتعيين أسقف "مطران" الحبشة، وأصبح هذا المطران له مكانة محترمة في نظر الحبشة<sup>(٤)</sup>.

(١) نهاية الأرب، (٣٠ / ١٤٢).

(٢) كان يملك مدينة "اسطنبول" في ذلك الوقت. يراجع: الوافي بالوفيات، (١٥ / ٢٠٣).

(٣) نهاية الأرب، (٣٠ / ٣٤).

(٤) العلاقات الحضارية بين الحبشة ومصر في عصر دولة المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)، د/ مزابنت زيد المرزوقي البقمي، بحث منشور بمجلة كلية الآداب - جامعة المنصورة، العدد الواحد والستون، (٢٠١٧ م)، (ص ٦٠٣).

أما بالنسبة للعلاقات المصرية الحبشية في عهد السلطان بيبرس فقد ارتبطت مصر بعلاقات الود والصداقة مع الحبشة في ذلك الوقت، وكما هو المعتاد فقد أرسل ملكها كتاباً إلى الملك الظاهر يتودد إليه فيه "وسأل فيه أن يُجهز له مطران من عند البطرِك فأجيب"<sup>(١)</sup>.

وقد نقل المؤرخ شهاب الدين النويري نص المراسلات التي أرسلها ملك الحبشة إلى السلطان بيبرس فقال: «كان مضمون كتاب متمك الحبشة إلى السلطان: «أقل المماليك، يقبل الأرض وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر، خذ الله ملكه، أن رسولاً وصل من جهة والى قوص بسبب الراهب الذى جاءنا، فنحن ما جاءنا مطران وبلادنا بلاد مولانا السلطان ونحن عبيده. فيرسم مولانا يأمر الأب البطرِك يعمل لنا مطراناً رجلاً جيداً عالماً لا يحب ذهباً ولا فضة، ويسيره إلى مدينة عوان وأقل المماليك يسير إلى أبواب الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه، وهو يسيره إلى أبواب السلطان، وما كان سبب تأخر الرسل عن الحضور إلى السلطان إلا أنني كنت في "بيكار"، والملك داود توفي، وقد ملك ولده، يا مولانا، وعندى في عسكري مائة ألف فارس مسلمين، وإنما النصرارى كثير لا تعد، وكلهم غلمانك وتحت أوامرك، والمطران الكبير هو يدعو لك، وهذه الخلق كلهم يقولون: آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر، ويهلك الله عدوه، ويقول الخلق آمين.

وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا أقل المماليك يحفظهم ويسفرهم كما يحبون، وإنما الرسول الذى سيره وإلى قوص فجرد وهو مريض، وبلادنا بلاد وخمة أي من مرض ما يقدر أحد يدخل إليه، وأي من شم رائحته يمرض ويموت، والراهب قال: ما يروح بغير رفيق، ونحن فنحفظ كل من يأتي من المسلمين، وارسموا فسيروا مطراناً يحفظهم»<sup>(٢)</sup>.

(١) السلوك، للمقرئزي، (١٩/٢).  
(٢) نهاية الأرب، (٣٠/١٣٥، ١٣٦).

ولم تكن هذه المكاتبة الوحيدة بينه وبين السلطان بيبرس فقد تمت مراسلات كثيرة بينهما تتم عن عظيم الود والصداقة، وتؤكد كيف أصبح بيبرس مهيب الجانب وموضع احترام الملوك الغربيين والشرقيين المعاصرين له؛ فكانوا جميعاً يخشون بأسه ويعملون كل ما في وسعهم لتودد إليه والتقرب منه، ويرجع الفضل في ذلك إلى ما اشتهر به بيبرس من حسن السياسة والنبوغ في فنّ الحرب<sup>(١)</sup>.

**موقف الدعوة الإسلامية من سياسة السلطان بيبرس في تبادل الرسل والسفارات مع غير المسلمين:**

لقد أجازت الدعوة الإسلامية وسيلة إرسال الرسل التي يمكن أن يعتمد عليها الداعية أو ولاية الأمر في جلب مصلحة المسلمين ودفع المضرة عنهم، وقد كانت هذه الوسيلة من أهم وسائل الدعوة الإسلامية التي اعتمد عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته، فقد كاتب النبي ﷺ الأمراء والملوك وأرسل إليهم الرسل يدعوهم إلى الإسلام ونبذ الشرك، فقد أرسل - ﷺ - عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، فأخذ كتاب رسول الله - ﷺ - ووضع على عينيه، ونزل عن سريره، فجلس على الأرض، ثم أسلم حين حضره جعفر بن أبي طالب وحسن إسلامه. وأرسل - ﷺ - دحية بن خليفة الكلبي بكتاب إلى هرقل عظيم الروم. وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس. وحاطب بن أبي بلتعة اللخمي إلى المقوقس ملك الإسكندرية ومصر، فقال خيراً، وقارب أن يُسلم، وأهدى لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مارية القبطية وأختها شيرين، فوهبها رسول الله - ﷺ - لحسان بن ثابت. وأرسل عمرو بن العاص إلى ملكي عمان فأسلما وخليا بين عمرو وبين الصدقة والحكم فيما بينهم، فلم يزل عندهم حتى توفي رسول الله - ﷺ -.

وأرسل سليط بن عمرو العلوي إلى اليمامة وإلى هوزة بن علي الحنفي.

(١) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، د/ محمد جمال الدين سرور، (ص ١٢٣ وما بعدها باختصار وتصرف).

وأرسل شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك البلقاء من أرض الشام. وأرسل المهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث الحميري. وأرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين فصدق وأسلم. وأرسل أبا موسى الأشعري وعاذ بن جبل إلى جملة اليمن داعين إلى الإسلام، فأسلم عامة أهل اليمن ملكوهم وسوقتهم<sup>(١)</sup>.

ووفق هذا الأمر فإن مبدأ إرسال الرسل الذي اعتمده السلطان بيبرس في سياسته الخارجية يتوافق والمنهج النبوي الشريف في تبليغ الدعوة الإسلامية وتحقيق مصلحة المسلمين.

### وختاماً:

فهذا بحثي المتواضع، قد اجتهدت فيه قدر الاستطاعة؛ حتى أحقق الغاية المنشودة من ورائه، لأنال - ولو بالقدر اليسر - شرف الإسهام في تقديم شخصية الظاهر بيبرس كقدوة صالحة للناس جميعاً بشكل عام وفي ميدان السياسة الخارجية بشكل خاص، ولا يفوتني في نهاية هذا البحث أن أؤكد على ضرورة تنوع الدراسات العلمية والبحثية حول الظاهر بيبرس بشكل كبير؛ وأن يحظى بالقدر الكافي من اهتمامات المؤسسات العلمية والأكاديمية؛ لما له من جهود بارزة في خدمة الإسلام والمسلمين.

وينبغي أن أؤكد في نهاية هذه الدراسة أن البحث لن يسلم من الزلات والهفوات، ومن ثم ألتمس من شيوخ الكرام، وأساتذتي الفضلاء النصيح والإرشاد والتوجيه، وأسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي وحسناتهم، إنه سبحانه وتعالى حسبنا ونعم الوكيل.

(١) تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، (١/ ٣٠)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - بدون.



## الخاتمة

### النتائج والتوصيات:

#### أولاً: أهم النتائج.

١) بان أن السلطان بيبرس كان من أبرز القادة التاريخيين الذين عرفهم الواقع التاريخي بشكل عام والإسلامي بشكل خاص؛ لأنه قد تمتع بسيرة ذاتية متفردة، كما كانت له مواقف مشهورة وأحداث معروفة في الدفاع عن الإسلام والبلاد الإسلامية.

٢) ظهر تعدد الاتجاهات حول التعاطي مع شخصية السلطان بيبرس، وبان أن المنهجية الصحيحة في التعاطي مع شخصيته هي الوسطية دون إفراط أو تفريط.

٣) بان اهتمام السلطان بيبرس بالبنیان والعمران، وإنشاء الجوامع والمدارس التعليمية، وبناء القناطر والجسور التي ما زالت معالمها باقية حتى الآن.

٤) اتضح أن من أهم الأعمال التي قام بها السلطان بيبرس هي نقله مركز الخلافة العباسية إلى مصر، وذلك بعدما قتل "المغول" الخليفة العباسي؛ بهدف توحيد العالم الإسلامي تحت قيادة الدولة المصرية.

٥) اتضح أن السلطان بيبرس قد توفي وترك الدولة المصرية بعده تتيه فخرًا بجيشها القوي المنظم، وبحدودها الآمنة، وبعلاقتها المنتظمة مع الدول الأجنبية، وبجهازها الإداري والقضائي عالي الكفاءة وبقاعدة اقتصادية تركز على أسس ثابتة.

٦) ظهر تمتع السلطان بيبرس بالنصيب الأوفى من فنون السياسة والدبلوماسية في الداخل والخارج؛ فقد مثلت سياسته الدرجة الأولى من السياسة في العالم آنذاك، بينما كانت سياسية "المغول" تمثل الدرجة الثانية،

كما كان بارعاً في الدبلوماسية العالمية، ويمتلك جهازاً استخباراتياً قوياً؛ استطاع من خلاله النفوذ في بلاط الأمم والممالك الأخرى.

(٧) اتضح أن السلطان بيبرس قد كانت له جهود متعددة في الدفاع عن البلاد الإسلامية وصد حملات "المغول" و"الصليبيين" قبل توليه السلطنة، وبعد توليه السلطنة استطاع أن إلحاق الهزائم المتعددة بالمغول، وإنهاء التواجد الصليبي ببلاد الشام.

(٨) بان أن سياسة السلطان بيبرس في صد أخطار "المغول" و"الصليبيين" كانت سياسة شرعية تتوافق ومبادئ الدعوة الإسلامية.

(٩) اتضح أنه في الوقت الذي كان السلطان بيبرس يجاهد ويصد فيه أخطار المعتدين والغاصبين، لم يكن أبداً أن يرفض سياسة الجنوح للسلم والمهادنة إذا أتحت الفرصة لذلك، وطالما كانت مصلحة الإسلام والمسلمين، وفي الجانب الآخر حرص على أن يتحالف مع غيره من القادة المسلمين الآخرين مثل "بركة خان"؛ بهدف التنسيق والتعاون المشترك للدفاع عن البلاد الإسلامية.

(١٠) ظهر أن السلطان بيبرس قد رفض عقد المعاهدات مع "المغول"؛ لأنه كان يعقدها مع من يظن بهم خيراً ويحفظون العهد والذمة، أما من هم غير ذلك فكان يرفض أن يقيم معهم عهداً أو مهادنة؛ لذا فقد رفض عقد اتفاقيات الصلح مع من تلوثت أيديهم بدماء المسلمين من "المغول".

(١١) كان السلطان بيبرس يلجأ أحياناً إلى توقيع المعاهدات وعقد الهدنات مع "الصليبيين" إذا أحس بحاجة إلى ذلك، ولكنه لم يجد غضاضة في أي وقت في خرق تلك المعاهدات ونقض تلك الهدنات قبل انقضاء أجلها التقليدي وهو عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام.

(١٢) بان أن سياسة السلطان بيبرس في عقد المعاهدات ونقضها في

بعض الأحيان سياسة شرعية تتوافق ومبادئ الدعوة الإسلامية.

١٣) انتهج السلطان بيبرس منهجاً دبلوماسياً مع الممالك والأمم الأخرى التي كانت تسالمة وتعاهده، وهذا المنهج تضمن التبادل التجاري بين الطرفين؛ الذي من شأنه أن يحقق الرخاء الاقتصادي للدولة الإسلامية التي كان يحكمها آنذاك.

١٤) ظهر أن سياسة السلطان بيبرس في التبادل التجاري مع الأمم غير المسلمة كانت سياسة شرعية تتوافق ومبادئ الدعوة الإسلامية.

١٥) اتضح أنه لم يكن السلطان بيبرس بعيداً عن السياسة والدبلوماسية في إرسال السفراء والرسل، فقد نقلت الروايات التاريخية أنه كان يعتمد مبدأ الحوار وإرسال الرسل في التفاهم والتعارف على ملوك وأمراء الدول والشعوب والأخرى، وقد ترتبت على هذه السياسة منافع كثيرة تحققت للإسلام والمسلمين في عصره.

#### ثانياً: التوصيات.

١) أوصي المؤسسات البحثية والأكاديمية بمزيد العناية لدراسة التراجم والسير الذاتية للقادة التاريخيين المسلمين، وبيان جهودهم في جميع الجوانب السياسية والعسكرية والدينية والاجتماعية، ودفع ما يثار حولهم من شبهات وشكوك.

٢) أوصي المؤسسات الإعلامية بضرورة عمل أعمال درامية وسينمائية تقدم الشخصيات التاريخية وبما فيها السلطان بيبرس من خلال الروايات الصحيحة والمعتمدة؛ بهدف التوعية التاريخية، على أن تشكل لجنة من المتخصصين لمراجعة واعتماد هذه الأعمال.

٣) أوصي المؤسسات المعنية بالآثار بضرورة إحياء التراث الحضاري والعمراني الذي بناه السلطان بيبرس وشيده بشكل مبهر وأنيق، وذلك لأن هذا

التراث جزء من تاريخ مصر والأمة العربية والإسلامية، ويعتبر من أهم الروافد الحضارية والمادية.

٤) أوصي المؤسسات المعنية بالسياسة والدبلوماسية بضرورة استثمار شخصية السلطان بيبرس في التواصل المعرفي والثقافي بين مصر وكازاخستان - موطن السلطان بيبرس - واعتبار شخصيته قوة ناعمة بين البلدين في جميع الجوانب السياسية والفكرية.

## المصادر والمراجع

القرآن الكريم، سبحانه من أنزله.

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، أ.د/ محمود حمدي زقزوق، دار المعارف، بدون.

(٢) الأعلام، خير الدين الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ-)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - (٢٠٠٢م).

(٣) الامبراطورية البيزنطية، نورمان بينز، تعريب: د/ حسين مؤنس، أ/ محمد يوسف زيدان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ط الأولى (١٩٥٠م).

(٤) البحث العلمي أسسه وطريقة كتابته، د/محمد الصاوي محمد مبارك، المكتبة الأكاديمية - القاهرة - ط الأولى (١٩٩٢م).

(٥) بدائع السلك في طبائع الملك، محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي، أبو عبد الله، شمس الدين الغرناطي ابن الأزرق (المتوفى: ٨٩٦هـ-)، المحقق: د/ علي سامي النشار، وزارة الإعلام - العراق - ط الأولى.

(٦) البنية الأسطورية في سيرة الظاهر بيبرس، د/ إبراهيم عبد الحليم حنفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الأولى (٢٠١٢م).

(٧) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ-)، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى، (٢٠٠٣م).

(٨) تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، د/ محمد سهيل طقوش، دار النفائس، ط الأولى (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

٩) التحرير والتتوير «تحرير المعنى السديد وتتوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، دار التونسية للنشر - تونس - سنة النشر: (١٩٨٤هـ).

١٠) تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دُوزي (المتوفى: ١٣٠٠هـ)، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط الأولى، من (١٩٧٩ - ٢٠٠٠م).

١١) تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - بدون.

١٢) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة - ط الثانية، (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).

١٣) جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، عبد الله سعيد محمد الغامدي، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

١٤) الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، دراسات تحليلية وثائقية في التاريخ الدبلوماسي، عمر كمال توفيق، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر - الإسكندرية - الطبعة الأولى (١٩٨٦م).

١٥) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد،

ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، المحقق: خليل شحادة، دار الفكر - بيروت - الطبعة: الثانية، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

(١٦) السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين المقرئ (المتوفى: ٨٤٥هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ط الأولى، (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

(١٧) سنن الترمذي.

(١٨) سنن النسائي.

(١٩) السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية، عبد الوهاب خلاف (المتوفى: ١٣٧٥هـ)، دار القلم، الطبعة: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

(٢٠) السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط الثانية، (١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م).

(٢١) شذور العقود في تاريخ العهود، ابن الجوزي، دراسة وتحقيق د/ أحمد عبد الكريم نجيب، مركز نجيبويه للمخطوطات، ط الأولى (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م).

(٢٢) شرح السير الكبير، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ)، الشركة الشرقية للإعلانات، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: (١٩٧١م).

(٢٣) شَرْحُ صَاحِبِ مُسْلِمٍ لِلْقَاضِي عِيَاضِ الْمُسَمِّي إِكْمَالُ الْمُعَلِّمِ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ، عِيَاضُ بْنُ مُوسَى بْنِ عِيَاضِ بْنِ عَمْرٍوَنِ الْيَحْصَبِيِّ السَّبْتِيِّ، أَبُو

الفضل (المتوفى: ٥٤٤هـ)، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط الأولى، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

(٢٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢٥) صحيح البخاري.

(٢٦) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، د/ محمد جمال الدين سرور، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى (١٩٣٨م).

(٢٧) الظاهر بيبرس، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، سلسلة أعلام العرب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

(٢٨) العلاقات الحضارية بين الحبشة ومصر في عصر دولة المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)، د/ مزابنت زيد المرزوقي البقمي، بحث منشور بمجلة كلية الآداب - جامعة المنصورة، العدد الواحد والستون، (٢٠١٧م).

(٢٩) فرسان الإسلام وحروب المماليك، جيمس واترسون، تقديم: جون مان، ترجمة: يعقوب عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، ط الأولى، (٢٠١١م).

(٣٠) فن السيرة، إحسان عباس، دار الثقافة - بيروت - لبنان، ط الثانية، (١٩٠٠م).

(٣١) الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان - ط الأولى، (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م).

- ٣٢) لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت - ط الثالثة - (١٤١٤هـ).
- ٣٣) معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت - ط الثانية، (١٩٩٥م).
- ٣٤) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- ٣٥) الملل والنحل، الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م).
- ٣٦) المماليك في مصر، أحمد زقلمة، مكتبة مدبولي - مصر - ط الأولى (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
- ٣٧) مناهج البحث الفلسفي، د/ محمد أحمد مصطفى السرياقوسي، دار الثقافة - القاهرة - (١٩٩٠م).
- ٣٨) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة: الثانية، (١٣٩٢هـ).
- ٣٩) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: ٨٧٤هـ)، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد أمين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤٠) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: ٨٧٤هـ-)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

٤١) نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، د/ عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، (١٩٧٩م).

٤٢) نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ-)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، (١٤٢٣هـ).

٤٣) هولكو (المراد القادم من الشرق جزار التاريخ عدو الحضارة)، منصور عبد الحكيم، دار الكتاب العربي - دمشق - بدون.

٤٤) الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ-)، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت - (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).

٤٥) ويكيبيديا.